البَابُ الثَّانِي

عموم الدعوة الإسلامية

من مدلول الكلمة – ومن وحي الفطرة –
وفي حقيقة القرآن – وشخص الرسول

(١) معنى كلمة إسلام ووروودها على ألسنة الرسل .

(٢) الإسلام فطرة لازمت الإنسان منذ بدايته .

(٣) القرآن الكريم تنزيل رب العالمين .

(٤) الرسول الكريم – أكمل دليل على أن دعوة الإسلام للعالمين .

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الدين عند الله الإسلام

(١) معنى كلمة إسلام وورودها على ألسنة الرسل :

الإسلام ليس غريبا على الكون ولا دخيلا على فطرة الإنسان .

بل هو في حقيقته حياة الكون مسوقة في تنزيل إلى فكر الإنسان وضميره ليحيا منفعلا بما حوله من حقائق تعمل في وجوده وتؤثر في بقائه .

فهو انعكاس الكون بحقائقه في صفحة الإنسان ليحيا منفعلا بخصائصه في حقيقة الوجود ، والكون والإنسان كلاهما أثر لقدرة الرحمن ، خاضع بالفطرة لجلاله ، مسبح طوعا أو كرها بحمده : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

وإذا نحن تأملنا كلمة إسلام وجدناها تعني : (الانقياد والامتثال لأمر الآمر بلا اعتراض) وعليه فالكون كله مسلم من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومن ماء

وشجر وزرع وثمر وإنسان وحيوان وما خلق الله من شيء ، إذ الكل خاضع ممتثل للخالق منقاد لأمره من حيث فطرته .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

فكل من في السماوات والأرض مسلم بهذا المعنى ، أي خاضع لأمر الله ، مطيع لما وضع في العالم من قوانين .

ثم قصرت في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعا .

فكأن المسلم هو الذي رضي بإطاعة الله ، فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

وبهذا المعنى تطلق كلمة « مسلم » على كل من خضع لله وأطاع أي نبي من الأنبياء .

فأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النمل : ٢٩ - ٣١] .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٢] .

وفي سورة يوسف : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ [١٠١] .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى ٱللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ

نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٢] .

ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أتى به محمد ﷺ ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣] ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

وإذا تأملنا هذه الآيات من سورة الأعراف وهي تتحدث عن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر والنجوم وخضوع كل شيء لأمر الخالق ، ثم تدعو الإنسان إلى الاستقامة وعبادة الله ، ثم تتحدث عن تسخير الرياح ونزول المطر وإحياء الأرض وظهور الثمر ؛ إذا نحن تأملنا دعوة الإنسان إلى عدم الإفساد في الأرض بالاستقامة وعبادة الله بين آيات تتحدث عن خضوع ما في الكون كله للخالق — ألفينا أن القرآن الكريم يسترعي النظر إلى أن يتسق الإنسان مع الكون بإرادته وسعيه كما هو متسق بفطرته وخلقه حتى لا يصطدم بنواميس الكون وحقائق الوجود .

ومن عجب أن تأتي الآية التي تتحدث عن الرياح والمطر وإحياء الأرض بعد موتها وظهور الزرع والثمر بعد دعوة الإنسان إلى الاستقامة وعدم الإفساد في الأرض . لتسترعي النظر مرة أخرى إلى الحقيقة التي تصحح السلوك الإنساني . « الموت وما بعده » ، ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

أ — ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] .

ب — ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا

فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٥ ، ٥٦] .

جـ - ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] .

جاء بين الآيتين أ ، جـ قوله تعالى مخاطبا لبني الإنسان :

﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي استقيموا على الفطرة .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن الانحراف عن الفطرة إفساد في الأرض بغير الحق .

والإنسان كما نعلم ذو جانبين : جانب هو فيه منقاد بالفطرة من حيث حياته وموته وطوله ولونه . ومن حيث آيات الكون التي يحيا معها وتؤثر فيه من هواء وشمس وماء وزرع وثمار وليل ونهار إلى غير ذلك من مخلوقات يرتبط كيانه بوجودها وتتوقف حياته على قيامها .

وجانب هو فيه مختار من حيث سلوكه وعمله الذي هو نتيجة عزمه وإرادته ، فإن التقى بسلوكه وعمله مع فطرته أي كانت إرادته تبعا لأمر ربه كان الصلاح ، وإن انحرف بسلوكه وعمله عن فطرته أي كانت إرادته تبعا لهواه كان الفساد . ولذا جاءت الآية الكريمة : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ بعد آيات تتحدث عن انقياد الكون كله لأمر الخالق وخضوعه له وأدائه لواجبه ، واتباعه لسنته وانقياده لما سخر له ، لتنبه الإنسان وهو خلق الله إلى أن يقوم بوظيفته ويحقق أمر خلافته : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

ولذا يسوق الله تبارك وتعالى كثيرا من مظاهر الكون وحقائق الوجود في آيات بينات لتكون تبصرة وذكرى ، وأنت تسمع : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [سورة يس : ٣٣] ، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [سورة يس : ٣٧] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ المَشْحُونِ ﴾ [سورة يس : ٤١] .

آيات تساق للإنسان كي يستقيم بسلوكه وعمله ويؤدي وظيفته مدركا لحقيقة وجوده وغايته .

ولهداية الإنسان إلى السلوك الذي يتفق مع الفطرة ولا يصطدم مع نواميس الكون وسننه ولكي ينتفع الإنسان بخصائصه الذاتية وما خلق الله وما سخر من أجله في عدل وإنصاف وبر ورحمة – جاءت الدعوة الإسلامية ترسم السبيل وتوضح الطريق وتقيم الحدود .

وهي تلتقي مع الفطرة في سماحتها بلا حرج أو تكلف أو عسر : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] . ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] . ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] .

نعم جاءت الدعوة الإسلامية فطرية إنسانية ، حنيفية سمحة ، متسقة مع الكون ، داعية للتأمل فيه والإفادة منه : ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

لذا فإن أي داع إلى الله وأي نبي من عنده هو مسلم بفطرته ودعوته ولذا وردت كلمة « الإسلام » على ألسنة الرسل جميعا وهم لم يطلبوا من أقوامهم إلا أن يكونوا مسلمين ، لأن شيئًا غير الإسلام في أرض الله لا يمكن أن يقبل ولا يمكن أن تستقيم معه أحوال الناس كما لا يمكن أن يتفق مع فطرة الكون وخصائص الوجود :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

فالكلمة بمدلولها كما ترى لا تدل على اسم شخص بعينه أو أمة بعينها ، وإنما تدل على صفة خاصة يضمنها معنى الإسلام .

ويظهر من هذا الاسم أنه ما عني بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال ، وليس خاصا بأمة معينة دون سائر الأمم ، وإنما غايته أن يحلي الأرض جميعًا بصفة الإسلام ، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ، ويكون مسلما كل من سيتحلى في المستقبل [١]

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة تتسع لماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم ، كما اتسعت لنبوات الأنبياء جميعا ، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر .

والإسلام في لغة القرآن – ليس اسما لدين خاص ، إنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء .

هكذا نرى نوحا يقول لقومه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٧٢] . ويعقوب يوصي بنيه : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٢] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة . ١٣٣] .

وموسى يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٨٤] .

والحواريون يقولون لعيسى : ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة : ١١١] .

---

(١) « مبادىء الإسلام » لأبي الأعلى المودودي .

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة القصص : ٥٣] .

وبالجملة نرى اسم الإسلام شعارا عاما يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية .

ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديدا ، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم – ينظمهم في سلك واحد ، ويجعل منهم جميعا أمة واحدة لها إله واحد ، كما لها شريعة واحدة : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٢] .

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام ، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين ؟

إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين ، إنه التوجه إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك ، وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان دون تمرد على حكمه ، ودون تمييز شخصي أو طائفي وعنصري بين كتاب وكتاب من كتبه ، أو بين رسول ورسول من رسله . هكذا يقول القرآن : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

[سورة البينة : ٥] .

ويقول : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة ١٣٦]

أرأيت أن مدلول الكلمة يتسع للكون كله زمانه ومكانه ؟

أرأيت أن الرسل جميعا قد عملوا في مدلولها الواسع ، ونطقوا بها كحقيقة خالدة ، لا تتبدل ولا تتغير ، ودعوا أنفسهم وأقوامهم إليها ؟

أرأيت أن ما طرأ على رسالاتهم من تبديل ، أو تغيير ، كان من عمل الأتباع المنحرفين ، لا من صنع الأنبياء والمرسلين ؟

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٧] .

أرأيت إن كلمة واحدة يمكن أن ينتسب العالم كله إليها ؟

فتتسع له في وحدة لا تعرف الفرقة . وأخوة لا تعرف التنابز . وإيثار لا يعرف الأنانية ورحمة لا تعرف البغي أو التسلط .

كلمة واحدة يمكن أن ينتسب الناس إلى حقيقتها فلا يشعرون معها بعصبية الدم أو الجنس أو اللون . لأنها مجردة من النسبة إلى شخص أو زمان أو مكان ألا وهي « الإسلام » .

أرأيت أن المسيحي في هذا الدين يجد تكريم نبيه ، واليهودي يجد في هذا الدين الإشادة برسوله . والإنسانية كلها تجد فيه التكريم لأفرادها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ [سورة الإسراء : ٧٠] والبر بإنسانيتها ، والرعاية لحقوقها ، والعناية بحاضرها ومستقبلها ؟

ثم أرأيت أن الإنسانية تجمعها أخوة واحدة ، ونبي الإسلام يشهد على هذا ويسمعه الناس يناجي ربه في آخر الليل ويقول : « وأنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » [1] .

---

(١) رواه أبو داود .

أرأيت لِمَ كان الدين عند الله « الإسلام » ؟

لأن النبي على سنة من سبقه من الرسل ، والرسل لم يحملوا للإنسانية شيئا غير الإسلام ، وأنت تقرأ في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة الأنعام : ٨٣ – ٨٦] .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٨٩] .

ثم تسمع الحق جل وعلا يوجه نبيه فيقول : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾

[سورة الأنعام : ٩٠] .

تجميع لخصائص النبوات كلها في نبوة واحدة ورسالة خاتمة تخرج إلى الوجود كله كاملة وافية بسعادة البشر ، كما تخرج الشمس إلى دنيا الناس فلا يرى بعد ظهورها نجم ولا قمر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٥] .

۝ ۝ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الروم : ٣٠] .

صدق الله العظيم

(٢) الإسلام هو الفطرة التي لازمت الإنسان من بدايته :

إن نزعة التدين أصيلة في الإنسان ، فالإنسان بطبيعته ينعطف إلى قوة أعلى يركن إليها ويؤمن بها ولهذا لم توجد جماعة قط بغير دين وإن حادت به أو استقامت معه على الصراط المستقيم .

وإذا كان الدين نزعة فطرية كان قيامه بين الأفراد والجماعات ضرورة حتمية استجابة لهذه النزعة .

وما نراه من تعلق الإنسان في كثير من الأحيان بحجر أو بشر أو شيء من مظاهر الطبيعة ما هو إلا دليل انعطاف الإنسان إلى القوة التي أشرنا إليها ، واستجابته للطبيعة التي تأبى إلا أن تظهر ولاءها لشيء تكبره وتخشع له .

على أن الإنسانية في استجابتها لهذه النزعة . قد تضل فتخشع أمام شجر وحجر أو شمس وقمر ، أو أي شيء تتمثل فيه إرضاء نزعتها وتتوهمه سندا لحاجتها ومجيبا لدعوتها .

وقد تهتدي إلى الحق فتكشف بذلك عن خصائص إنسانيتها وسلامة فطرتها

فتحيا للخير وتعمل له ، وتعشق البر وتأنس به راضية بربها مطمئنة بسعيها ، تأخذ دائما بأسباب الترقي إلى الله الذي آمنت به ، وكلما ارتقت اتسع أمامها مجال الخير وأسعدها اطمئنان القلب .

على أن الله جلت قدرته لم يترك الناس ينحرفون بفطرتهم فيهيمون بين خلائق الأرض يطلبونها لشفاعة السماء .

بل هداهم إلى استقامة الفطرة وأرشدهم إلى سلامتها .

فحولهم بهذا من التسفل والسقوط إلى العلو والصعود ، فلم ينحصروا في دائرة الأرض وإن عمروها ، بل ربطوا بينها وبين قدرة السماء وقد لمسوها فانطلقت الهمم بارة راشدة تربط بين كيانها هنا ومصيرها هناك ، فانفتح باب الخير واتسع سبيله ، وعملت الفطرة في مجالها الطبيعي لا مقطوعة ولا ممنوعة بل موصولة كل آن وحين ، تناجي ربها وتناديه وتشعر بقربه منها فترغب فيه ، فاستبان لها حينئذ خضوع كل شيء لقدرته واستجابته لعظمته .

أما وقد استبان للفطرة سبيلها السوي وطريقها الأبي على يد أول إنسان وهو أول نبي ، فقد وجب أن ندرك أن عناية الله أدركت الإنسان من بدايته وهي ترعاه وتحوطه إلى نهايته .

إن الانعطاف إلى التدين لم يختص به إنسان دون آخر .

وبهذا أمكن الإنسانية أن تتوارث معارفها ويقتفي بعضها أثر بعض ، فلا ينفصل سابق عن لاحق ، وقد جمعتهم الفطرة العامة ، ومضت فيهم السنة الخالدة التي لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا .

ونتيجة لهذا الاتساق العجيب يمكننا أن نقرر أن ما بيد الإنسانية اليوم من حضارة مادية ومعنوية لم يكن عمل جيل من الأجيال أو أمة من الأمم ، بل هو عمل الأجيال كلها ممثلا في الفطرة الهادية والمعرفة الراشدة من لدن آدم إلى يومنا هذا .

ولا يمكن في تقديرنا نحن أن نفصل بين الجانب المادي والمعنوي فلم يكن هذا الفصل في طبيعة الخلق حتى يمكن تحقيقه في مجال الفكر والسلوك .

فالإيمان بالجانب المادي وحده نزول بالإنسان إلى واد مظلم سحيق .

والإيمان بالجانب المعنوي فقط مخالفة للفطرة ومنافاة للطبيعة ، هما مخلوقان لخالق واحد يشهدان للقدرة الإلهية ، وهي تمنح سرها صلصالا من حمأ مسنون ليكون إنسانا بروح وجسد .

والمفرقون يجهلون أخص شيء بهم : يجهلون أنفسهم .

فأين الحياة لجسد فقد الروح ؟

وهم كذلك ينحرفون بمذاهبهم ويضلون في سلوكهم ، فلا الروح وحدها ترى فترى معها حياة ، ولا الجسد بمغن في القضية بشيء إذا الروح تركته وانفصلت عن ثراه !

إن الفطرة التي نعنيها إذن هي الفطرة المتكاملة التي يظهر عمل الروح فيها .

الفطرة التي من صنع الله لا من دعوى العباد .

وتلك التي نعنيها بعملها وسلوكها وإيمانها وهي التي لازمت الإنسان من بدايته .

قلنا : إن الله جلت قدرته لم يترك الناس ينحرفون بفطرتهم ، فقد بدأ الطهور من منبعه الأصيل يمتد وينساب بقدر ما تقضي به الضرورة وتدعو إليه الحاجة ، كذلك الرسالات رسالات الله منبعها واحد وأصلها واحد تنسكب هنا وهناك وتمتد بامتداد الخلق ، وتمضي مع نموه وتدرجه .

آدم في دائرته ، ونوح إلى قومه ، وعاد أخوهم هود ، ومدين أخوهم شعيب ، وثمود أخوهم صالح ، وموسى إلى قومه ، وعيسى بين حواريه ، ومحمد إلى الإنسانية

جميعًا إذ التقت عنده الروافد كلها وتآخت معه الرسالات جميعا .

لكن الروافد ذات المصدر الواحد ظلمتها أهواء الناس ، وأساءت إليها بدخيل إضافته أو حق أنكرته ، أو حكم عدل ينالها لظلمها حذفته ثم افترت أن ذلك كله من رسالة المرسل فهي تؤمن به ولا تحيد عنه .

وهكذا تحول العذب إلى آسن ، واختفى الجوهر الأصيل ، وسادت العملة الزائفة ومن ثم اختفت خصائص الإنسان وشاعت ضراوة الحيوان ، وكلما جاد المنبع الباقي على الناس بماء الحياة لوث بصنع الناس وتغير بفعلهم !

ولم نر رجلا أنصف الحقيقة ودافع عن معتنقيها والداعين إليها مثل ما فعل نبي الإسلام محمد ﷺ .

لهذا قلنا : إن الروافد كلها التقت عنده ، فعادت إلى طبيعتها نقية طاهرة نافعة ، كما يلتقي الماء وقد طال مجراه بأداة الترشيح والتنظيف بعدما تغير بفعل الناس ، فترد عنه الدخيل الضار ، وتمضي بالعذب الفرات .

وكذلك الرسالات التقت كلها عند محمد ﷺ فوجدت نفسها على طبيعتها ووجدت فيه الذائد عن طهارتها ، الحارس لجوهرها .

التقت عنده ، فوجدت بحرا فسيحا منطلقا يمضي طهورا وهو يلقي بالزبد ، فأمنت وسلمت وتوحدت وامتزجت امتزاج تعارف وتراحم .

التقى الأول والآخر ، وتآخى السابق واللاحق ، وأنصفت الحقيقة التي ظلمها الناس وترقبتها الأجيال بعد ظلم وإظلام ، والتمستها في أصالتها ، وكالها فالتقت هي والإسلام .

ونود أن نقف بهذه المناسبة عند قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران ١٩] .

وأن ندرك ما للتأكيد من مغزى في هذا المقام إنصافا للحقيقة التي ظلمتها الأهواء وتجرأ عليها المفترون .

عند الله : وهو المعول عليه إذ نسبة الدين إلى الله بهذا التأكيد تمنح الدين نفسه روح الصدق والحق والعدل والتقبل ، وهي تخصص الحقيقة بعد أن التوت بها أهواء ، وقامت باسمها شيع وأحزاب ، ونسجت لها أسماء وألقاب ، كل فريق يدعي الصدقَ ويتهم الآخر .

أين الحقيقة إذن ؟ ومع من تكون ؟

يقطع الحق جل وعلا أن الحقيقة من جميع جهاتها ومسمياتها تنحصر في الإسلام أولا وآخرا من بداية الخلق إلى نهايته : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] .

فما عرفت السماء لها نبيا ولا اعترفت إلا لمن نادى في يقين وثقة ورشد : ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] . دعوة إلى الله الواحد الأحد من لدن آدم تتابع عليها الأنبياء والمرسلون .

ظلمتها أهواء فاجرة فأساءت إلى جوهرها وتاهت بالناس في أودية العمى والضلال ، وفرقت بين الداعين إلى الواحد وتشيعت ظلما لأحدهم دون الآخر مع أنهم جميعا يبرءون إلى الله من هذا الهوى الكذوب والضلال البعيد .

إن الأشخاص ماضون والحقيقة باقية ، وهي لم تسم في يوم من الأيام باسم شخص من الأشخاص بل سميت باسم معنى تنشده الإنسانية دائما وترجوه ، تنشد السلام والأمن ، وهو الإسلام . وما دونه إفك وظلم .

إن محمدا ﷺ كرم الأنبياء جميعا ، وطلب الإيمان بهم جميعا . وعدّ الإيمان بهم أصلا في رسالته ، والتفريق بينهم إنكارا لدعوته : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٥] .

وكان من فضل الله على الإنسانية أن يضمن لهذا الكتاب الذي ضم الاعتراف بالأنبياء جميعا . الحفظ والبقاء ، وهو يسجل الصفحات البيضاء لهم ، ويضعهم في موضعهم إذ يرد ما افترت الأهواء عليهم ، وكأنه بهذا يقول للإنسانية تلك هي الحقيقة الماضية على يد الداعين إليها ، وهذه هي الحقيقة الباقية في كتاب من عند الله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [سورة فصلت : ٤٢] .

قالت السماء كلمتها ، وأفضت للإنسانية آخرا بحقيقتها من بدايتها إلى نهايتها وختمت بمحمد ﷺ هذه الحقيقة ، وأجرت على لسانه كل إنصاف وتقدير لأصحابها. والداعين إليها ، وحمّلته أمانة الدعوة إليها والذود عنها والتضحية في سبيلها .

نعود مرة أخرى فنقول : إن الإسلام ليس دخيلا على الكون ولا غريبا على فطرة الإنسان ، لذا فإن قوى الإنسان المختلفة من فكرية ووجدانية وإرادية تجد كمالها وبواعثها من الدين ، كما تجد صيانتها ورعايتها وحفظها .

« فالتدين ولا سيما في أديان التوحيد والخلود – كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز – عنصر ضروري لتكميل القوة الفطرية في الإنسانية ، فيه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا .

ثم هو فوق ذلك عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان ، فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر ، والتواضع والحياء ، والأمل وغيرها إذا لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء وفي الناس ، وإذا جفت ينابيعها في هذا العالم المتبدل المتغير ، وجدت في موضوع الدين مجالا تدرك غايته ، ومنهلا لا ينفد معينه ، وأخيرا هو عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة يمدها بأعظم البواعث والدوافع ، ويدركها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط ، وهكذا نجد الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها ، حتى أنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه « حيوان مفكر » .. أو أنه « حيوان مدني بطبعه » يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه « حيوان

متدين بطبعه »[1]

فالإسلام إذن كدين خالد جمع خصائص النبوات كلها يلتقي مع فطرة الإنسان ، وقد لازمه من بدايته من أول إنسان هبط إلى الأرض : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨] . ذلك هدى الله الذي لم ينقطع عن الخلق قط تأتي به رسل الله تباعا وتحمله صفحة الكون في آيات تبصّر وتذكّر .

والكون هو الساحة الكبرى التي تفد عليها الأجيال فترى من آيات الله ومن سره في خلقه ما يعصم يقينها ويزيد إيمانها ويهذب سلوكها وينمي روابطها : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة ق : ٦ - ٩] .

فأنت ترى أن ساحة الكون مملوءة بالمواعظ والعبر ، آخذة بالألباب لا ينقضي عجب المتأمل فيها ، وفطرة الإسلام لا تجعل من الإيمان شيئا يعزل الإنسان عن واقع الحياة أو يصرفه عن ملاذها أو يحجبه عن آياتها ، وإنما تجعل من الإيمان انبعاثًا للفكر وحياة للوجدان ومضاء للعزيمة ، كما تجعل منه سببا للعمل المتصل في غير يأس أو قنوط ، لا تفرقة بين دين ودنيا ، الكل في الإسلام دين ما دام مرتبطا بالإيمان واليقين .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٧] .

* * *

---

(١) الدين – للدكتور محمد عبد الله دراز .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الواقعة : ٧٥ - ٨٠]

صدق الله العظيم

(٣) القرآن تنزيل رب العالمين :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٨] .

ليس في وسع بشر أن يحيط بشأن القرآن وما احتواه من أسرار التنزيل إذ هو كتاب الدهر كله ، وما الفرد في جيل إلا ذرة في فضاء .

وما الجيل في زمن إلا لبنة في بناء .

وما الزمن أو الدهر إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فكيف الإحاطة وعقول البشر جميعا تلتقي عليه فتجد نفسها مع الكون جميعه ومع الدهر كله ؟

« فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل » .

ألست ترى من قول الرسول الكريم أن القرآن العظيم حافل بالزمن كله ،

ماضيه وما حوى ، ومستقبله بما احتوى ، وحاضره بما يشتمل عليه من مشاكل متعددة وقضايا متنوعة يقف منها موقف الحكم العدل الذي يسوي بين الخلق ويقضي بينهم بالحق ، ويرفع معالم الهدى ، ويثير دوافع الرحمة ؟ وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة النحل : ٦٤] .

وحسبنا هنا أن نسهم بقدر يسير في الإشارة إليه لندرك من هذا القدر أننا أمام بحر زاخر لا تنقضي عجائبه . ولا تحد جوانبه ، بل إزاء سراج وهاج يمسك زمام النفوس بما احتوى في طبيعته من قوة الجذب والتأثير ، فهو في علوه ساطع بنوره تنجذب النفوس حوله وتدور في فلكه فيمسك بها مضيئة مشرقة ، آمنة مطمئنة ، عادلة معتدلة ، لا تحيد عن الحق أو تميد ، كما تمسك شمس الطبيعة بعالمها وتدور حولها كواكبها وهي تجود بالحياة وتبعث بالضياء وتشرق بالنور ، والذي جعل الشمس ضياء هو الذي جعل الكتاب نورا : ﴿ طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ العُلَىٰ ۞ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى العَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۞ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [سورة طه : ١ - ٩] .

وبعد هذا أود أن يقتصر حديثي عن القرآن بصورة عامة على جانبين :

الجانب الأول : القرآن والإنسان .

الجانب الآخر : القرآن والكون .

ولعل هذا ما أوحت به الآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] .

والإنسان كما نعلم اجتماعي بطبعه ، لذا وضع القرآن للمجتمع آدابا تنمي روابطه وتحفظ تعاونه وتعارفه وتصون الحق فيه وترعى العدل بينه .

والإنسان كما نعلم يحيا في كون تسبح فيه آيات الله التي تدعو للتأمل والنظر وتعود بالمنفعة واليقين ، فالمجال كما نرى يتسع للحديث عن كل شيء .

لكني سأوجز القول فيهما بصورة تستبين معها عالمية هذا الدين وعموم رسالته ، وسأقتصر على نصوص القرآن وحده تاركا بعض نصوص الحديث إلى الكلام عن شخص الرسول الكريم ﷺ .

أما عن القرآن والإنسان : فتعال بنا نتابع السير لنرى مدى عناية القرآن بالإنسان . أنا أبلغ من العمر أربعين أو خمسين عاما ، ماذا كنت قبل ذلك ، هذا تساؤل يثيره القرآن نفسه وهو يقول : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [سورة الإنسان : ١] نعم جاء على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا .

إذن من أنشأه وخلقه ؟

يجيب القرآن : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة الإنسان ؛ ٢] .

ولكن كيف وما مراحل التكوين من بدايته إلى أن يصبح بأمر ربه خلقًا آخر ؟

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [سورة المرسلات ٢٠ ٢٣] .

تم تكوين الإنسان وتم خلقه في قرار مكين .

وآن لهذا الإنسان أن ينزل إلى ساحة الكون ، القرآن الكريم معه أيضا في هذه اللحظة : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٧٨] .

تلك هي المرحلة الأولى في تكوين الإنسان ، وتلك هي بدايته وهذه المرحلة يعتني القرآن بها أكرم عناية ، وهو حفي بشرف التربة التي ينشأ فيها والأرحام التي يتطور في قرارها فهو يُحرِّم الزنا حتى تتوافر للإنسان قبل أن ينزل إلى الدنيا أسرة ترعاه وأبوة تحوطه وأصل يمتد به نسبه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٣٢] .

وهو في سبيل المحافظة على هذه التربة وصيانتها يمنع الأسباب التي قد تجر إلى إفسادها : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٠] . ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [سورة النور : ٣١] .

أليست هذه عناية كاملة بتهيئة تربة شريفة طاهرة ينبت فيها غرس كريم ينتمي إلى أسرة محفوفة بالطهر محصنة بالعفاف ؟

أليست هذه أكبر عناية بالإنسان قبل أن يتدرج في الخلق بل قبل أن تحمله الأرحام ؟

ولد الإنسان ، فتعالوا بنا نتابع سير القرآن معه ، وهو يعتني برضاعته وحضانته وتحديد المسئوليات التي تترتب على ذلك حتى لا يضيع الطفل « الإنسان » بين مشاكل قد تنشأ من الأسرة أو الأبوين : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٣] .

ما أجل وأبر وأكرم وأحوط للرعاية من أن تسمع في ختام الآية : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ويعنى القرآن بالأمومة (أم الطفل) أي « الإنسان » ويجعل البر بها ممتدا لا ينقطع ، ولا يجعل للمشاكل التي قد تنشأ بين الأبوين أي تأثير على حقها أو حق الوليد الذي تستقبله الدنيا : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الطلاق : ٦] . هذا حث للأم ألا تنسى أمومتها بعد حث الأب ألا يضن بالراحة على الأمومة والعناية بالطفولة [١] . ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ٧] .

وهو دائما يثير دواعي الحب والرحمة ويعمل على توطيد الألفة والمودة بين الزوجين اللذين ينشأ بينهما : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [سورة النحل : ٧٢] ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٩] ،

---

(١) كل في حدود طاقته .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم : ٢١] ، ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٧] ، ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٩] .

وعلى الذين يتبرمون من مشروعية الطلاق في الإسلام أن يتأملوا سمو هذه الآية التي تقول : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ لم تقل : « فإن كرهتموهن فطلقوهن ! » .

إن القرآن حين شرع الطلاق إنما جعله آخر علاج تصان به الحرمات وهو علاج لا يلجأ إليه أبدًا إلا إذا استُنفِدت كل الوسائل الممكنة لإصلاح ذات البين ، بل هو يجعله على مراحل حتى تمهد الفرصة للرجوع : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ١] .

والقرآن يحاول دائما أن يجنب الأسرة أسباب الخلاف ، وهو يذكرها بالرحم ويربطها بالرحمة ويعصمها باليقين ، ومع كل هذا إن دب خلاف بين الزوجين أو خيف شقاق ندب القرآن إليه أولي الفضل من الرجال وأولي القرابة من الأرحام ، ووقف يسدد خطواتهما بالتوفيق إن عزما على إقامة صلح وإعادة ود : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٣٥] .

وإن اتسع الخلاف وعدم الوفاق وقف القرآن يطلب تحقيق البر بينهما حتى في حالة استحالة العشرة وهو يطلب المعروف في حالي قيام الزوجية وانفصالها .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣١] ،

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [سورة الطلاق : ٢] .

أرأيت مدى العناية التي أولى القرآن الإنسان إياها في نشأته ورضاعته وحضانته وتوفير المودة بين أهله ؟ (١) .

ولكن قد يفقد الطفل أحد الأبوين أو كليهما لا عن طريق الفرقة أو الشقاق بل عن طريق الأجل المحتوم ، فماذا تكون عناية القرآن الكريم بالطفل ؟

ينظم القرآن الحقوق التي تتعلق بالميراث أو الوصية أدق تنظيم ، ويطلب رعاية مال اليتيم والبر به : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٢] . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

[سورة النساء : ١٠] .

ثم بين ما هو أخطر من ذلك ترقيقا للقلوب بتقرير الواقع الذي قد تغفل عنه بعض النفوس : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٩] .

ثم هو يجمع بين عبادة الله وبين الإحسان باليتامى في آية واحدة : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] ويجعل من أسباب التكذيب بالدين كله إيذاء اليتيم أو النيل من حقوقه : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي

---

(١) للإسلام في هذه المواقف كلها أحكام تفصيلية سنتعرض لها في مكانها وحسبنا هنا أن نبرز فقط عناية القرآن بالإنسان في جميع مراحل سيره بصورة عامة

يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [سورة الماعون : ١ - ٣] .

وهناك أمر آخر قد يتعرض الطفل بسببه للإهمال أو الضياع : ذلك هو أن ينزل إلى الدنيا فلا يجد والداه من السعة ما يحوطانه به ، فماذا يكون عمل القرآن في هذه الحال ؟

ينهى القرآن أن ينال الطفل أي مكروه بسبب ضيق الرزق : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١] . ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [سورة التكوير : ٨ ، ٩] .

ثم هو يضع قانونا : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [سورة المائدة : ٣٢] يكشف أن قتل واحد هو قتل للناس جميعا : هنا يأتي التكافل في صميم الآية لحماية أفراد المجتمع لأن ما يقع من قتل أحدهم إنما هو قتل لهم جميعًا ، ولاشك أن الوالد الذي يحمله ضيق الرزق للتخلص من نفس بريئة يستدعي أمره قبل أن يقع في مثل هذه الحال تكافلًا من المجتمع يصونه ويمنعه من الوقوع في مثل ذلك حتى لا يقع القتل عليهم جميعا بقتل واحد منهم .

وإذا بدأت عين الطفل تتفتح للحياة فلنتابع سير القرآن الكريم معه : فقد عني القرآن كما نعلم بتحقيق بيئة صالحة يتوافر فيها للطفل أن ينشأ على الخير وأن يتدرج في معالي الفضيلة والطهر .

تأمل هذه الضوابط التي وضعها القرآن الكريم في البيئة الأولى التي ينشأ فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا

الحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ العِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٥٨ ، ٥٩] .

القرآن الكريم مع اعتماده على تنقية البيئة وصلاحيتها اعتمد أيضا على تقديم الموعظة والنصيحة يقوم بها والد مع ولده أو راع مع رعيته : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١) .

تأمل عمل القرآن في ذلك وهو يسوق موعظة لقمان لابنه ، والقرآن كما نعلم كتاب الخلود يسجل من الموعظة والوصايا ما ينفع به الأجيال كلها مع امتداد الزمان والمكان : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] ، ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ المُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾

[سورة لقمان : ١٦ - ١٩] .

ألست ترى أن هذه الموعظة وحدها قد جمعت مقومات الإنسان الكامل الذي يحيا بمعاني إنسانيته مدركًا لحقيقة وجوده ؟

---

(١) من حديث شريف

وإذا كان القرآن الكريم قد أمر باتباع النصيحة والأخذ بها فإنه مع ذلك عد نصيحة العمل أبلغ من نصيحة القول : « ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من معلم الناس ومؤدبهم » [١] .

لذلك نجد القرآن الكريم ينكر على الناس أن تخالف أقوالهم أعمالهم ويعد هذا منافيا لمنطق العقل مجافيا لسنة الفطرة يعرض صاحبه لمقت الله وغضبه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٤٤] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الصف : ٢ ، ٣] .

وإذن فقد جمع القرآن في تربيته وتهذيبه بين القدوة الحسنة والنصيحة الصادقة .

وإنا لنرى لزاما علينا في هذا الموقف أن نسوق بعض ما قدمه القرآن الكريم من قصص عملي واقعي في مجال البيئة الأولى ، لندرك منه أن التربية الصادقة تنتج نماذج للبشرية تضيء ظلامها وتطوي ليلها كما يطوي بساط الليل الغاسق أمام ضوء الفجر الصادق .

القرآن الكريم يسوق من هذه النماذج قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل :

إسماعيل وهو يتدرج في أحضان النبوة يسمع من والده : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [سورة الصافات : ١٠٢] فيستجيب طائعا راضيا بأمر ربه : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة الصافات : ١٠٢] .

---

(١) علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وإبراهيم الذي طلب من الله ولدا صالحا ها هو ذا يبتلى فيه أي بلاء ! أن يذبح ابنه بيده ، وما أشق ذلك على النفس !

فماذا كان موقف الوالد وابنه ؟ تأمل ذلك من أسلوب القرآن نفسه ، ومن بداية دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الصافات : ١٠٠ - ١١١] .

قصة بسالة وصبر ، قصة عزيمة وصدق ، قصة يقين وتجرد ، بل قصة بلاء ما بعده بلاء ، وجزاء على الصدق مع الله أي جزاء !

وهكذا قصص القرآن كله تجده أساسا للتربية الظافرة والعبرة المصفاة .

وما أكثر القصص في القرآن وهو يعرض نماذج متعددة لمن تحسن بهم القدوة ولمن قامت فيهم العبرة : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨] .

وإذا كانت التربية الحديثة تُعنَى بتقديم القصص على لسان الطيور والحيوانات وذلك لا يعدو في مدلوله أن يكون تنمية لمعرفة أو سوقا لعبرة سطحية فإن القرآن قد سجل أكرم وأصدق وأروع ما يمكن أن يؤثّر في النفوس ويرشد القلوب والعقول معًا ويفي بأنواع التربية المختلفة من عقلية وخلقية واجتماعية ، وإليك نموذجا من هذا القصص العملي الواقعي في القرآن :

مع نملة وهدهد في مُلك سليمان : إذ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة النمل : ١٨] .

أرأيت إلى الحيطة والحذر ؟ أرأيت حسن التدبير ومنطق الحكمة على لسان نملة مما أدهش سليمان نفسه : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۞ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة النمل : ١٩ - ٢٨] .

وتمضي القصة تكشف عن صدق الهدهد ووصول الكتاب وتبادل الرسائل وإرسال الهدايا ، وظهور الحق ، وتنتهي بهذا الإعلان الكريم : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل : ٤٤] .

قصة الراعي اليقظ الذي لا يغفل عن غياب هدهد مع الرعية الواعية التي تنهض وتعمل وتنطق بالحق معتدة به وباليقين صادرة عنه ، قصة الجندية الواعية مع القيادة العاقلة الحكيمة التي تزن الأمور بالتجربة وتتقبلها بالدليل : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

قصة الإيمان المستبصر المستنير وهو يمتد بأصالته فيكشف ويضيء ويهدي ويرشد وما أجلها عبرة أن آمنت أمة وهديت مملكة على يد هدهد آمن برسالته وأخلص في جنديته !

فأنت ترى أن القرآن الكريم حين يقدم هذا القصص إنما يثير به كوامن النفس ودوافع العزيمة كما يجرد الإرادة للعمل الصالح وهو يسلك بالإنسان أقوم سبيل لتحقيق الرسالة التي خُلِق من أجلها .

هدهد يقوم باكتشاف مخالفة لقانون الله في الأرض : « عبادة المخلوق ونسيان الخالق » ، ويقف موقف المعتد بالحق أمام ملك عظيم ونبي رسول كان قد توعده : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . فجاء يقول لمن توعده : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ .

ما أجمل الموقفين : موقف سليمان وهو يتفقد كل شيء في دولته ، وموقف الهدهد وهو يقوم مخلصا برسالته !

وما أجمل قصص القرآن كله وهو يمتزج بالفطرة الإنسانية فينطلق بها في ميدانها الفسيح في عزم وحزم وثقة فترى من آيات الله في النفس وفي الآفاق ما تتبين معه أن الله واحد وأن دينه حق .

وليس المجال هنا مجال تفصيل لقصص القرآن وما احتواه من جليل العبرة وخالص الموعظة . وإنما أردنا فقط أن نشير إلى أوجه التربية الفردية والجماعية التي حفل بها القرآن الكريم .

والحق أن كل كلمة فيه سواء منها ما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو القصص أو أي شيء من الشئون إنما هي باب للتربية الإنسانية على أكمل صورتها وأجل معانيها .

وإذا نحن تابعناه في كل ذلك وهو يمزج بين شئون المال وبين رقابة الله وخشيته

وبين العبادة والاستعداد للآخرة ، وبين المعاملة والحساب بين يدي الله ، وبين القصص واستخلاص العبرة فيه – إذا نحن تابعناه وأدركنا ما فيه ألفينا أن عنايته بالإنسان كانت تكريما له وتأييدا لخلافته وإبرازا لخصائصه وصيانة لحرمته وحماية لإنسانيته :

تأمله في شئون الميراث في الآيات الثلاث :

١ – ﴿ يُوصِيكُمْ ٱللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ ﴾ [سورة النساء : ١١] .

٢ – ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ .. ﴾ [سورة النساء : ١٢] .

٣ – ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ ﴾ [سورة النساء : ١٧٦] .

تجده يختم الأولى بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ويختم الثانية بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ ويختم الثالثة بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ليبين أن رقابة الله قائمة : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٥] فيصان التعامل بالصدق والطهر وتستقيم أمور الناس بالوفاء والعدل .

وإذا تحدث عن البيع والشراء أو الدين والرهن رأيته يسوق كلمة : ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ ﴾ مكررة في الآيتين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. ﴾ الآية [سورة البقرة : ٢٨٢] ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ .. ﴾ الآية [سورة البقرة : ٢٨٣] ، ويختم الأولى بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والأخرى بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وإذا تحدث عن تحريم الربا صدّر الآية بالإيمان وتقوى الله وكرر الإيمان مرتين ، ثم أعلن الحرب من الله ورسوله وفتح باب التوبة ثم ختم الآيتين بقوله : ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٩] وتلك هي روح التشريع كله كما قال رسول الله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .

وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

ثم إذا تأملته في العبادة ألفيته يختم آية الصوم بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] وآية الحج : ﴿ الحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ بقوله : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٧] . ويجمع بين الصلاة والزكاة في كثير من الآيات ، وأنت تسمعه يجمعهما في آية واحدة من سورة لقمان يقرنهما باليقين بالآخرة : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة لقمان : ٤] وفي الصلاة : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣٢] وفيهما معًا : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣١] . وفي الزكاة : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٤] . وفيهما معا : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٥٦] .

وفي شئون السلوك والمعاملة بل في شئون الإنسان كلها تجده يحصي كل شيء بعدما بيّن طريق الحلال من الحرام ودعاه إلى مكارم الأخلاق : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] ، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٩] ، ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [سورة النبأ : ٢٩] ، ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الجاثية : ٢٩] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣] .

وأما العقائد فإن القرآن يجرد الإنسان لها بحيث يجعل كل شأن من شئونه متجهًا إليها صادرًا عنها . ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٥ - ٦١] .

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١١٤] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] ، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٣١] .

أرأيت أن القرآن الكريم لم يترك للإنسان فراغًا يفسد حسه أو يقتل نفسه أو يذهب به في أودية الهوى ونوازع الشهوة ؟

إن القرآن العظيم جعل الإنسان دائما مرتبطا بالواجبات منوطا بالتبعات ، وهو يرسم له في يومه الذي هو وحدة زمنية متكررة منهجا يستوعب اليوم كله ، واليوم عنده يبتدئ من مطلع الفجر الصادق حيث تقام الصلاة ويلتقي الناس على

ذكر الله ، وهو يطلب دائما أن يكون اليوم أفضل من الأمس ومن استوى يومه بأمسه فهو مغبون .

منهج يومي بالنسبة للصلاة خمس فرائض ، أولاها تبعثه من نومه وتوقظه وآخرها تودعه إلى مرقده وتحفظه ، وثلاث تأتي في وسط النهار وآخره تمتزج مع السعي ونتائجه فتستقيم بها حياة الروح والجسد ، كما يمتزج في الماء عنصراه فيصبح قواما لكل شيء حي .

منهج الصلاة منهج ثابت يمتزج كما قلت بالسعي ، فينشأ من امتزاجهما آداب السلوك التي تضبط كل حركة من حركات الإنسان بضابط الخلق ورقابة الضمير ، فينمحي من عمل الإنسان ظلام القصد وظلم السعي ، وتلتقي دقات القلب مع دقائق الزمن في نشيد رباني !

هذا مسبح بفطرته وذاك بفطرته وإرادته ، وتأتي الواجبات تباعا ، فللعقل غذاؤه من المعرفة والعلم ، والعمر قصير محدود ، والعقل طموح وميدانه فسيح ، وللقلب غذاؤه من الذكر واليقين وللجسد مطالبه وضروراته التي تستلزم كَدًّا وجهدا .

والقرآن الكريم يطلب لكل شيء في الإنسان أسباب الكمال والرفعة فهو يشيد بالعقل ويعلي من قدره ويطلب استعماله في كل مجال ويسوي بين الذين لا يستعملون عقولهم وبين الأنعام بل يجعلهم أضل شأنا : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٩] .

وهو كذلك يطلب القلب الحي : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] .

كما يطلب الجسد القوي ويحافظ عليه بالنظافة والطهر والرعاية ، وهكذا يحافظ القرآن على الإنسان كله بخصائصه ومواهبه ، ويأخذ بيده إلى رفعة دائمة وصعود مستمر ، وكل ذلك يتطلب من الإنسان جهدا منظما وعملا دائبا كما يتطلب إتيان

الطيبات وترك الخبائث محافظة على العقل والنفس والمال والعرض وهي مقومات الإنسان .

قلت فيما مضى إن القرآن لا يدع مجالا للفراغ الذي يفسد الحس ويقتل النفس ، وأود هنا أن أشير إلى أمر ذي بال في حياة الفرد والمجتمع أيضا ، هذا الأمر هو ما يسمى غريزة الجنس التي بالغ في أمرها من بالغ ، وعالجتها أمم بإباحة الزنى وفتح بيوت الدعارة .

القرآن عالجها بجملة موجزة جامعة فقال : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [سورة النور : ٣٣] .

ولسائل أن يسأل : هل يعد هذا علاجا أو كبتا لهذه الغريزة ؟

فنقول : إن القرآن كما قلنا قد ربط الإنسان بواجبات تملأ عليه نفسه وتصون له حسه ، ولم تأت الآية اعتباطا ، بل جاءت لأن النفوس التي ارتبطت بواجبات ملأت عليها فراغها تستطيع أن تصان بالعفة وأن تعتدل بالطاعة ، وهي تتجنب مثيرات الهوى وتبتعد عن أسباب المنكر . ولئن قيل : إن في هذا كبتا لغريزة تلح على صاحبها وللكبت آثاره الضارة وانحرافاته المهلكة .

قلنا : وأي أمر يمكن أن يصل إليه الإنسان إلّا بنوع من الضبط ؟

إن غريزة حب البقاء تتطلب من الإنسان البعد عن المخاطر فإذا لم يكبتها مقاتلا في ساحة الحرب فر من الميدان وجر على أمته الخزي والخذلان !

والذين يحاولون أن يجعلوا من غريزة الجنس مشكلة تتطلب الحل عليهم أن يتخذوا لها شيئين رسمهما الدين الإسلامي العظيم لا يغني أحدهما عن الآخر :

الأول : تيسير الحلال بتيسير أسبابه .

الآخر : أن ترتبط الخواطر والضمائر بمنهج الإسلام الذي يعصم القلوب

باليقين ويصرف الجهد للعمل النافع في كل ميدان ، فإن أبطأ الزواج عاشت النفس غنية بما لديها من أسباب الرفعة محصنة بما معها من أسباب الخشية الدائمة واليقين الثابت ، ولئن كان في هذا نوع من الكبت – فإنه كبت مؤقت به تتربى الإرادة والعزيمة وتدرب النفس على ترك ما تشتهي وما ترغب .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

أما الكبت الدائم بمعنى الامتناع عن الزواج فالإسلام يحاربه ويعده مخالفا للفطرة « لا رهبانية في الإسلام » .

فالقرآن إذن حين قال : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [سورة النور : ٣٣] لم يترك الإنسان خاليا يكابد الهم بالليل ويشقى به في النهار ، وإنما رسم له منهجا وألزمه واجبات تتصل به وبأسرته ومجتمعه الخاص والعام ، فإذا ما تخلى إنسان عن واجباته وتخلص من تبعاته ولم يؤد لله حقا وانطلق يبتغي ارضاء غريزته وإشباع نهمه لزم أن يُؤدَّب وأن يُروَّض أولا على أداء الواجبات التي تمتد به إلى أسرة تتسع معها التكاليف وتعظم المسئولية . ثم إذا لم يُربَّ على الحرمان فترة ويُروَّض على الشدائد فكيف يمكن أن تكون له أسرة تزيد من واجباته وتكثر من تبعاته ؟

إن فترة الكبت المؤقت هي فترة تربية وإعداد ، وما صبر الطالب على الدرس – والنفس بطبيعتها تنفر من القيد – إلا لأنه يرقب المستقبل ويعمل له ، وهؤلاء الذين ينشدون الحياة إرضاء لغريزتهم وإشباعا لشهوتهم كثيرا ما تنتهي بهم الحياة إلى الفشل والضياع ! بل قد يهلكون في سبيل ما يرغبون ! والذين يطلبونها بأسبابها وينشدونها لغايتها إنما يبنون أنفسهم أولا ويعدونها لتحمل التبعات !

ولست أعلم مذهبا خلقيا أو دينا من الأديان استطاع أن يحوط نفس الإنسان بسياج الطهر والعفاف ويحصنها ويقيم فيها من المناعة ما يجنبها عن الفحشاء والمنكر وهو يملأ الوقت بالواجب الذي يمتد إلى واجبات مثل ما فعل الإسلام العظيم ! وإذا

كانت الشريعة الكاملة لبني الإنسان هي التي تفي بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض فإن القرآن يحقق هذا كله بآيتين من كتاب الله ، وتأمل معي قول الله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢] نعم بهاتين الآيتين تتم الصيانة الكاملة للإنسان كما يتحقق السلام والأمن للإنسانية جميعا .

فما بالك وأنت ترى فيضا من الآيات التي تصون عرض الإنسان وكرامته مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١١ ، ١٢] .

وهنا تجد القرآن يدخل إلى أعماق النفس فيحول بينها وبين الخاطر السيء : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ثم يتابع سير الإنسان فينهاه أن يتتبع عورات الناس ، فإذا همت النفس أن تحقق ما ظنت وقف القرآن حائلا بين النفس وما رغبت : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فذلك منع للقلب أن يشغل بظن سيء ومنع للإنسان كله أن

ينفعل به فيتجه لكشف عورة وإشاعة فاحشة ، ومنع للسان أيضا أن يشتغل بشيء من ذلك : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ، وتنفير عام من هذه الحالة وتصوير لها على أبشع صورة : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وما أجمل أن نسمع في ختام الآية : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهي تعني مع ما تحمله من معان – أن الباب مفتوح للتوبة والإقلاع عن الإثم بشتى صوره ، مفتوح لهؤلاء وأولئك من الذين تستكثرون معصيتهم وتستبعدون توبتهم وتتربصون لكشف عوراتهم .

صيانة للإنسان أي صيانة ؟ وتكريم لإنسانيته أي تكريم ؟ وتقديس لحرماته أي تقديس ؟

ولا يكتفي القرآن بهذا الموقف ، في المنع من الإثم والوقوف عند حد الإمساك عن ذكر العيوب ، بل يطالب بالعدل والإحسان والبر والنصيحة : تأمل القرآن الكريم في باب العدل ماذا يقول ؟ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل : ٩٠] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

ثم تأمله في باب الإحسان ماذا يقول ؟ إنه يجمع بينه وبين عبادة الله في آية واحدة تقديرا لأمره وتبيينا لمكانته : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] .

إحسان عام شامل يرتبط كله بعبادة الخالق ليتسم بالطهر والتجرد .

ثم تأمل حديثه عن البر وكيف يحدده ويبين سبيله : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] ، ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٩٢] .

وتأمله في باب النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ماذا يقول ؟

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٤] ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] . وهو يجعله من أسباب التمكين في الأرض : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤١] .

ثم تأمله بعد ذلك وهو يصون المجتمع الإنساني بتحريم ما من شأنه أن يحطم الروابط ويشيع الفرقة .

يحرم كل أمر ينال من شرف الإنسان وحريته وماله وعرضه وعقله ونسله .

ويأمر بكل شيء يصونه ويرعاه ويحقق له الألفة والمحبة مع الناس أجمعين ، اقرأ معي :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣ - ٣٩] .

أرأيت كيف تصان الحقوق وتقدس الحرمات ؟ لكن القرآن الكريم لا يكتفي بأن يجعل هذه المثل مجرد أوامر لا يحرسها البشر أو يرعاها الأحياء ، لو فعل هذا

لكان بعيدا عن واقع الحياة وحاشاه وهو دين الحياة كلها أن يترك أمن الناس بلا حراسة وسلامهم بغير قوة تحميه .

إن القرآن الكريم يجعل الأمة التي تؤمن بتعاليمه كلها مسئولة عن حراسة هذه الفضائل وتلك المثل حتى لا يتعرض أمن الناس وسلامهم للخطر : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

وهو يجرد العزائم من كل معوق يحول بينها وبين حراسة هذه المثل والجهاد في سبيل صيانتها ورعايتها الذي هو سبيل الله : تأمل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] . وهو من أجل ذلك يضع نظاما محكما عادلا للحرب والسلم وما يتبع ذلك من عهود ومواثيق ومن حرمات وحقوق نظاما يقوم على الرحمة والعدل والبر والحق ، وأنت تقرأ من القرآن في مودته مع من خالفه ولم يتعرض له بسوء : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨ ، ٩] .

ولقد سقت هذه الآية بالذات لأحدد بها ما قد يظن أن الإسلام يفرض على الناس أن يؤمنوا به أو يجرد السيف ابتداء لمن يخالفه .

إن الإسلام يضع نظاما عاما يلتقي فيه أصحاب الديانات المختلفة كل على دينه في حرية كاملة مع صيانة المفاهيم التي يتوافر بها أمن الناس وتستقيم معها حرية

التدين وصيانة الحقوق ويتم معها التعارف والتفاهم لا التنابز والتخاصم . وكون الإنسانية ترى هذه المفاهيم ضرورية لحمايتها وهي تلتقي مع تعاليمه أو تنبع منها ، دافع لها بالفطرة أن تقف عنده وأن تستضيء بهديه .

فإذا ما تسلط الناس على هذه المفاهيم التي تصونهم جميعا ، وجب على قوة الأمن في الإسلام أن ترد البغي وأن تكسر الشر وإلا وقعت الفتنة والفساد بالأرض : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

فأنت ترى أن قوة الأمن فيه أشبه بالجندي الأمين الذي يسهر على حراسة المنازل من اللصوص ويؤمن أصحابها أن يتسلط عليهم متسلط أو يغتصب حقهم غاصب .

وهو حين يندب أتباعه للجهاد ويفرضه عليهم إنما يندبهم لبذل دمائهم لصيانة الحق والعدل وتأمين السلوك والسعي ، فكم من ظلم – إذا لم يحارب – عمّ ظلامه ، وكم من شر – إذا لم ينحسر – امتد وباؤه .

فإذا استعصى على النفوس أن تركن إلى منطق العدل وأن تستجيب لداعي الخير وجب على قوة الأمن أن تتحرك لتحفظ على الناس حق الحياة ، وكان جزاء هذه القوة المؤمنة المخلصة أن تمنح هي أيضا من الله حياة أي حياة ؟ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٩] .

وكما يفرح الناس بتحقيق العدل بينهم كذلك هم يفرحون بما آتاهم ربهم : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٠] .

ولا عجب أن ترى هذه الموازنة بين حياة يحققها المجاهد لمن بعده ، وبين الحياة التي أعدها الله له وهو يخرج مجاهدًا في سبيله وابتغاء مرضاته ؛ فالجزاء من جنس العمل ، وما عند ربك خير وأبقى .

نعم أعد الله له حياة صافية ممتدة لأنه أحيا نفوسا دوخها الظلم ، وصان حقوقا تسلط عليها الهوى ، وبذل دمه في سبيل الله فاستحق عند الله الحياة .

لذا كان الجهاد في الإسلام جهاد رسالة وغاية لا جهاد حرب وغلبة وتسلط : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٠] ، ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٨] .

ونفوس المجاهدين في الإسلام تحمل سلاحها أولا من كتاب ربها فلا تظلم ولا تبغي ، لا تتعرض لضعيف أو متعبد أو معتزل للحرب أو طفل أو امرأة . تتعرض فقط لمن أمسك سيفه وأراد البغي لمن حاول أن يعكر على الناس صفو الحياة .

فالقوة الضاربة في الإسلام إذن قوة أمن وهي مسئولية بين يدي الله إذا لم تحقق أمره وتمض بوحي تعاليمه ، ونصر الله مقرون بتحقيق هذه المثل وتلك الغاية : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة الحج : ٤٠] .

إن هذا الدفع مقصود به تحقيق الصلاح في الأرض وهذا لا يتم إلا إذا كان للمحارب خلقه وكانت له غايته المجردة عن أية منفعة شخصية أو ذاتية اللهم إلا طلب المثوبة من الله وابتغاء مرضاته . ومن أجل هذا كله جعل علامة صدق المؤمن جهاده بماله ونفسه في سبيل الله لحراسة الحق أن يضيع وحماية العدل أن يُصَدَّع : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

أرأيت أنها قوة أمن ذاتية تقوم مع الإسلام بشكل طبيعي منبعثة من حقيقة الإيمان وتقرير الحق ؟

أرأيت أنها فدائية إنقاذ وبطولة تضحية ؟

لذا ذم الله قوما جعلوا غايتهم البطر ورئاء الناس وحذّر المؤمنين أن يكونوا مثلهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٥ - ٤٧] .

وسيأتي الحديث مفصلا عن مشروعية الجهاد في الإسلام – في الباب الرابع – إن شاء الله ، لكننا أردنا هنا أن نبين أن القرآن حين تحدث عن الجهاد إنما جعله بابًا لتأمين مصالح الناس وحفظ حقوقهم لا بابًا للعدوان أو الإكراه .

جعله ردا للشر ودفعا للظلم ليسلم العدل ويأمن الحق ، والقرآن في جميع الحالات من سلم وحرب وعداوة وحب يقيم ميزان العدل وينشد رعاية الحق : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الشورى : ٣٩ - ٤٣] .

ولو تجردت الإنسانية من هواها وأرادت أن تصون نفسها وتحفظ أمنها وسلامها ما وجدت لها موئلا غير كتاب الله يحكم بينها بالحق ويقضي بالعدل ويأمر بالإحسان ويوصي بالمرحمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا

حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٥٨] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٠] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

وهو بعد هذا كله يجعل العمل في سبيل الخير العام والرفعة الدائمة لا ينقطع أبدًا : فالإنسان في ظل الإسلام لا يعوقه عن العمل قضاء نازل أو يصرفه عنه بلاء واقع ، وأنت تجد الإيمان دائما يحول بين النفس وبين القنوط ، ويحفظها من اليأس القاتل والهم المعوق ، ويفتح أمامها باب الأمل الفسيح ، وهي تعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وتؤمن بقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [سورة الحديد : ٢٢ ، ٢٣] .

أرأيت إلى الأمل الباسم والسعي الدائم والاعتدال النفسي في العطاء والمنع ؟

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٦١] . ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ ﴾ [سورة المطففين : ٢٦] .

وبعد : فإن عناية القرآن بالإنسان لا تقف عند القدر الذي ذكرناه . والقرآن كله قد نزل رعاية لشأنه وهداية من ربه ورحمة من خالقه .

كما أنها لا تقف عند مرحلة التكوين أو مرحلة الحياة الدنيا فحسب والإنسان كما نعلم يمر بمراحل من الخلق والتكوين ، وهو في بطن أمه ، والحياة الدنيا التي هي تربة غرسه وعمله ، ثم الموت الذي هو بداية مراحل الآخرة ثم البعث والحساب فالجنة أو النار .

القرآن الكريم مع الإنسان في هذه المراحل كلها ، يؤمنها ويقدم النصح لها

ويجعل طريق الأمان فيها البذرة الطيبة والعمل الصالح في دار السعي والعمل .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [سورة الحديد : ١٢ ، ١٣] أي وراء هذا الذي يرجعون إليه فيلتمسون عنده النور ؟ إنه الرجوع إلى الدنيا لإحسان العمل وأخذ الأهبة ولكن ذلك لا يكون : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] .

والقرآن في حديثه عن البعث وهو مرحلة من مراحل الإنسان يربطه بالنشأة الأولى التي هي عناية محضة وتقدير مطلق ؛ ليدرك من هذا الاقتران أن أمره قد ابتدأ بقوة صرَّفته وعناية حفظته ، وأنه مُنْتَهٍ إلى رب هذه القوة ذاهب إليه محاسب بين يديه لئلا ينسى في زحمة السعي والكد فيحيد عن الطريق ولا يأخذ الأهبة ليوم حساب ما منه بد ، لذا كثيرا ما تأتي الأوامر والتوجيهات مقترنة بتذكير الإنسان بخلقه .

إن طالبه بالعبادة التي هي أساس الاعتدال النفسي والخلق الجماعي والبر الإنساني ذكره بأصله ونبهه إلى بدايته ، واسترعى نظره إلى ما خلقه من أجله وما سخره لراحته لتكون العبادة عن معرفة ويمتزج اليقين بالسعي والسلوك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢] .

وإن تحدث عن البعث والاستعداد ليوم الحساب والجزاء ذكره أيضا بالنشأة

الأولى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [سورة الحج : ٥ - ٧] .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[سورة يس : ٧٨ - ٨٣] .

وإن طالبه بالعلم والتعلم والقراءة ذكره بأصله وفضل الله عليه ليكون من منهج علمه معرفته لنفسه وإدراكه لحقيقته ووقوفه على مراحل سيره : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة ١ - ٥] .

وكما ذكره في الآية بالخلق وهو البداية الأولى نبهه إلى الرجعى وهي المصير الحتمي لكل إنسان : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [سورة العلق : ٦ - ٨] .

وجميل أن ندرك هنا أن القرآن الكريم وقد عني بمراحل الإنسان قد جعل بين

الناس حتى عندما يفارقون الحياة روابط الرحمة وصلات البر قائمة فيما تركوا من سنن طيبة وما يزودون به من دعاء كريم ، تأمل دعاء المؤمنين من وحي القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر : ١٠] ، ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة نوح : ٨] ، ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١] ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [سورة الطور : ٢١] .

أرأيت أن القرآن بلا ريب كتاب الله رب العالمين ، وأن هذه الصفة جعلته وهو ينزل مهيمنا يحيط بشئون الحياة كلها كما يحيط بدخائل النفس إحاطة كاملة ؟ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يونس : ٦١] .

إن هذا القرآن لا يمكن أبدًا أن يكون لأمة دون أمة أو قبيل دون قبيل ، وأنت ترى كل شيء فيه ينزع إلى الرحمة العامة والرعاية الشاملة والحق المطلق والعدل المجرد : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

[سورة الفرقان : ١] .

ليس للأرض وهي تطلب البركة وتشكو انتزاعها ، وتنشد الرحمة وتشكو ضياعها إلا أن تتأمل فيه ، وأن تتبع أمره وتسترشد بهديه : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٥] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾

[سورة المائدة : ٦٥ ، ٦٦] .

لاريب أن هذا كتاب رب العالمين ، وأن إعجازه وهديه قائم إلى يوم الدين : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة يونس : ٣٨] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء : ٩] .

هو كتاب الله وهو الذي تكفل بحفظه ، ومن خالفه تعرض لكيده : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] ، ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم : ٤٤ ، ٤٥] .

فإلى المنصرفين عنه أن يعودوا إليه ، وإلى التائهين في بيداء الحياة عليهم أن يبصروا الحق على ضوئه ، وعلى الغافلين عن لقاء الله أن يدركوا أن بعد الدار دارًا فيها حساب بعده جنة أو نار : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [سورة ص : ٨٧ ، ٨٨]

والحمد لله رب العالمين .

تعالوا بنا بعد ذلك إلى **الجانب الثاني** : القرآن والكون :

الكون الذي هو وثيق الصلة بالإنسان .

الكون الذي أقلته أرضه وأظلته سماؤه وغذاه نباته ورواه ماؤه ، وأمدته شمسه

وأمده هواؤه وآواه ليله وعايشه نهاره .

الكون الذي استقبله في حياته وضمه في مماته .

هذا الكون كما قلنا وثيق الصلة بالإنسان ، لذا نود أن نتأمل عناية القرآن به وهو يسترعي النظر إليه .

وعناية القرآن بالكون هي عنايته بالإنسان نفسه ، إذ هو المقصود وهو المخاطب ، والله تبارك وتعالى من رحمته بالإنسان جعله يقرأ كتابه المنزل في صفحتين : صفحة الوحي مسطورا ومحفوظا ، وصفحة الكون منقوشا ومنثورا !

فالقرآن كتاب الكون ، والكون صفحته الواسعة ، والإنسان وهو محدود بحيزه ومواهبه يمتد به ويستطلع على هديه ويتعرف على الوجود في حماه .

ويمكننا أن نتساءل لماذا حَضَّ القرآن الكريم على التفكير في الكون ، وسار بالإنسان في أوديته المختلفة وحقائقه المتباعدة ، والإنسان كما ذكرت محدود في حيزه ومواهبه كما أنه محدود في ضرورته ومطالب عيشه ؟

الحق أن المقصود تحقيق قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] .

المقصود عبادة الله ، وتأمل قول الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [٦١ ، ٦٢] ، وقوله في سورة ق : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [٦ - ٨] .

الكون بما اشتمل عليه يمد الإنسان بجميع ما يحتاج إليه لحفظ كيانه وامتداد

نسله بشيء من الملاءمة وعلى أساس من التجربة يزاولها الإنسان في حقل الحياة الواسع .

والإنسان لم يخلق شيئا وإنما هو يجرب أشياء قائمة وينتفع بمخلوقات موجودة ، ومن تقدير الله أن هذه المخلوقات وتلك الأشياء منبثة في الكون على نسق عجيب ، منها ما هو قريب من الإنسان يدرك أمر الانتفاع به في سهولة ويسر ، ومنها ما هو بعيد يحتاج في معرفته إلى عمل الفكر ومثابرة الجهد ، ومنها ما تتوافر عليه الإنسانية فلا تصل في خط سيرها الطويل إلا إلى قدر يسير وضئيل .

وكل مبهم تدرك الإنسانية أمره ينمي معارفها وهو في الوقت نفسه يشير إلى سعة المجهولات وكثرة المبهمات .

والإنسان في الحقيقة ما زال حتى الآن ابن أرضه يتدرج فيها ، وهو يجهل الكثير والكثير جدا من خصائصها .

قلت إن ما يحتاج الإنسان إليه في ضروراته محدود لا يتجاوز أوليات أرضه فما معنى الحديث عن الشمس والقمر والنجوم والكواكب ؟

صحيح أنها تعمل للإنسان ويرتبط بها كوكبه بنظام وقانون ، لكن ذلك يتم بشكل طبيعي وتأتي منفعته للإنسان فكر فيه أو لم يفكر .

فلم يحلّق القرآن بالإنسان ويدور به في أفلاك السماء وأجواء الفضاء وعالم الغيب . وضرورته المعيشية لا تتجاوز موضع قدمه ؟

الحق كما قلت أن المقصود هو : « عبادة الله » ، وعبادة الله كما تعود على الإنسان بعصمة فكره وطهارة قلبه تعود عليه أيضا بمتعة جسده وتوفير راحته .

والبحث العلمي الناشيء عن التأمل في الكون والنظر فيه يحقق الأمرين معا إن هو ارتبط بغايته ولم ينحرف عن قصده ، والذين حولوه لمتعة الجسد فحسب حالوا بينه وبين الحياة وارتكبوا في حق أنفسهم وحقه جرائم عدة :

أولها : أنهم ناقضوا فطرتهم وخالفوا طبيعتهم وهم ليسوا جسدا بلا روح حتى يخضعوا نتائج الروح العاملة المبصرة الواعية المتصرفة لجسد إذا فارقته أو انفصلت عنه ، لا يغني في القضية شيء .

ثانيها : أنهم أساءوا إلى العلم نفسه إذ حكموا عليه بالظلمة وهو نور ، وخدموا به الجسد وحالوا بينه وبين الروح الذي هو منها في منطق الفكر وأسباب التقدير .

ثالثها : أنهم حادوا به عن غايته فانتكست معه الإنسانية ظالمة مظلمة خائفة مضطربة لا تنعم بحضارة ولا تسعد بحياة ولو أنهم طلبوه لغايته وحكموا فيه فضائل الروح لخدم الجانبين معا في اعتدال يحفظ الأمن ويقيم السلام في داخل النفس وخارجها .

رابعها : أنهم انتكسوا بحقيقة الإنسان نفسه إذ جعلوه بطنا ومعدة كل شيء في الوجود يعمل لهما مسخرا من أجلهما حتى خصائص الإنسان العليا .

خامسها : أن قضية الأخلاق التي هي ألزم شيء بالروح وهي طريق الأمن للإنسانية وحماية حضارتها وأساس مودتها وبرها لم يعد لها شأن في مجال التحول والنزول بالإنسان إلى أحط فصائل الحيوان .

ومجمل الأمر أن الذين حولوا العلم بنتائجه لخدمة الجسد لم يخدموا حتى الجسد نفسه وهو يبحث عن ضروراته فلا يكاد يجدها إلا وقودا امتلأت به المخازن وحملته برءوس الأسلحة الفتاكة ، وبات الإنسان كله في فزع دائم ، لا يهنأ بعيشه ، ولا يأمن في يومه ولا يطمئن لغده .

نعود فنقول : إن القرآن الكريم وهو يحلّق بالإنسان في الفضاء وينتقل به بين عالم الأرض وعوالم السماء إنما قصد من ذلك رفعة الإنسان بعبادة ربه ومزج بين ذلك وبين عمله لحفظ كيانه إذ ليس في منطق القرآن تفريق بين دين ودنيا ، بل هو يجعل

من عمل الدنيا خدمة للدين ، كما يجعل من إقامة الدين حفظا للإنسان كله بروحه وجسده وتوفير أمنه وسلامه وراحته وكرامته ، فأنت حين تفكر في خصائص المادة تنتفع منها لجسدك إذ تلائم بينها وبين ما ينفعه ، وتنتفع منها لروحك يقينا يطهر القلب ويعصم الفكر فتنشأ الفضائل والأخلاق التي تؤمن المنفعة وتشيد الألفة والمحبة وتيسر التعارف والتعاون وتمكن للعدل والرحمة .

وبالله ! سل نفسك إذا قامت في الناس أضداد هذه الفضائل فهل يمكن أن تسلم لهم منفعة أو تستقيم بهم نهضة ؟

لذا قلنا : إن المقصود من التفكير في الكون والنظر فيه هو عبادة الله ليسلم الإنسان كله بروحه وجسده وينعم بخصائصه الذاتية ومقوماته المعنوية والعبادة في القرآن ليست تجريدا للإنسان عن واقع الحياة أو انعزالا به عن مطالبها وضروراتها ، بل هي في الحقيقة دخول به في ساحة الكون كله ليسمع نغم القرآن الفطري في سمت النبت الأخضر وعلى هامة الجبل الأشم وفي وجه القمر المنير وعلى جبين النجم المتألق وفي محيا الشمس الساطعة في الماء والشجر والزرع والثمر :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فالعبادة دخول بالإنسان في الكون ليحيا مؤمنا بآيات الله في خلقه يستمع إلى كل نغم فيه فيوقن أن الكل مسبح بحمد الواحد الأحد فيردد صادقا خاشعا : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٤] فتأتي العبادة في أعلى صورها في ومضة فكر وخشية قلب ، والإنسان يتقلب في معاشه أو يخشع في محرابه .

فحديث القرآن عن الكون — وعن كل شيء — يتعبد به لفظا كما يتعبد في واقعه معنى فأنت تتلوه في محراب الصلاة خاشعا وتراه في واقع الحياة بينا ساطعا ،

تقرأ في الصلاة : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [سورة النازعات : ٢٧ – ٣٣] ! وتخرج من محراب الصلاة إلى ساحة الحياة وأنت تفكر في نفسك وفي السماء وفي الليل والنهار وفي الأرض ومائها ومرعاها وفي الجبال ومن أرساها !

وترى هذه الأمور ماثلة أمامك تعلن عن صدق الوحي في صمت وتدين لخالقه في خشوع فيتسع محراب العبادة ويتحول الكون كله إلى محراب خاشع يتردد فيه نغم واحد : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] .

فإذا ما فكرت في أمر السماء جاءك اليقين : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٤٧] .

وإذا فكرت في شأن الأرض وما قام فيها أيقنت أنها صنع رب العالمين : ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٤٨] . ثم يأتيك نبؤهما بالحق على لسان الوحي في آيات لا تجعل انتفاعك بما في الكون انتفاعًا آليا وإفادتك بما تجود به السماء وما تخرجه الأرض إفادة حيوان يتناول ما يأتيه ولا يفكر من أين وكيف ولِمَ ؟

السماء تمطر فمن أين وكيف وَلِمَ ؟

يقول القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ

رُكَامًا فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور : ٤٣] .

﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] .

والعلم يكشف عن هذه الأشياء ويبين خصائصها .

والدين وهو يطلب التأمل فيها إنما يطلب مع المنفعة الطيبة اليقين الثابت والإيمان الخاشع والسلوك النقي .

وأود أن أستعير هنا بعض ما كتبه الدكتور محمد أحمد الغمراوي مما أورده عنه فضيلة الشيخ محمد الغزالي في كتابه : « نظرات في القرآن » لندرك منها أن العلم حقا يدعو إلى الإيمان ويبعث على اليقين ويقف بحقائقه يسه الإنسان إلى عظمة القرآن وصدقه وأنه الحق وبالحق نزل . يقول الرجل عن آية الحجر : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [٢٢] . مفتاح هذه الآية الكريمة هو : ترتيب إنزال الماء – لسقيا الناس – على إرسال الرياح لواقح .

والناس يحملون وصف الرياح اللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الآخر ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء يشربونه .

أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس ،

فقد تحتم أن يكون للّواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك – من ناحية – شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطرا ، وعن أثر كهربيته في ذلك التكاثف وأثر الرياح في تمهيد سبل الاتحاد بين كهربية وكهربية في سحاب وسحاب ، لتعلم أن المراد من وصف الرياح بأنها « لواقح » ليس هو الإشارة إلى أثرها في الجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات التأنيث ، ولكن هو الإشارة إلى أثرها في الجمع بين الكهربية الموجبة والكهربية السالبة في السحاب ، فالملاحقة هنا بين قطيرات وقطيرات أو بين سحاب وسحاب . لا بين زهر وزهر أو نبات ونبات ، والشبه تام بين هذا التلقيح النباتي ، وذاك التلقيح الكهربي . أو بالأحرى ليس هناك تشبيه مطلقا ، فإن اتحاد الكهربيتين تلقيح إن كان اتحاد الخليتين تلقيحا ، لأنه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين ، يختفي به الشيئان ، ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

وفي حالة التلقيح النباتي تنشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص كل منهما ، وفي حالة التلقيح الكهربي ينشأ من بين الكهربيتين ضوء وحرارة لهما خواص غير خواص الكهربيتين . فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الأحياء قد توافر . أما شرط ترتيب نزول الماء على تحقق هذا الإلقاح ، فقد عرفت توافره من ترتب تكاثف السحاب مطرا على التفريغ الكهربي السحابي .

فآية الحجر تلك هي مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقح السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث وهي طبعا مثل رائع من التطابق التام بين العلم والدين في الإسلام .

وآية أخرى أكثر تفصيلا من آية الحجر هي آية النور : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلَهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ

مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [٤٣] ومفتاح هذه الآية الكريمه هو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ فقد كان الناس يمرون بهذه الآية الكريمة يرونها مجازا من المجازات البلاغية وهي حقيقة من أمهات الحقائق الكونية .

وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة ، لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها ، فإن التأليف من السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربية حتى يتجاذب ويتعباً في الجو تعبئة كتعبئة الجيوش . يتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق وصواعق ، ومن مطر أو برد ، فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام .

وقد ذكرنا لك قبل ، ما وجدوه من أن عمق الركام في العواصف الرعدية يكون عظيما ، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض – كما هو الغالب – نزل المطر الناشيء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته في أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربية في ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ما به يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية ، تكوّن البرد ، ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى ، فيسقط على الأرض رحمة . إن كان صغيرا هينا ، ونقمة إن كان كبيرا راجما ، ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ .

وليس يدري الإنسان كثيرا عن الظروف التي يتكون فيها البرد ، لكنه يدري أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم ، هذا الاضطراب قد أشارت الآية إليه وإلى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله من الجبال .

والأخرى : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربية المشتركة في تكوينه بنّصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ .

وهناك آية أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربية لتلك الظواهر إشارة من نوع اخر هي آية الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [٦٨ - ٧٠] ، وتستطيع - بعد أن عرفت العوامل المتعددة التي لابد من تعاونها على تكوين المطر - أن تدرك شيئا من سر الحجة في هذا السؤال العجيب : ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ ﴾ لكن الإشارة التي أردنا أن نسترعي النظر إليها هي في قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

والناس طبعا يسلمون بالقدرة الإلٰهية على قلب العذب أجاجا . ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ، ولا يتساءلون : هل في سنن الله ما يسمح بهذا ؟

ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم لوجدوه قريبا ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إياه من السحاب هي بمحض رحمة الله .

إن الماء طبعا عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أنقى المياه . لكن طبيعة تكونه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أجاجا لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت أو نتروجين .

والأزوت كما تعرف أيضا لا يكاد يتحد في العادة بشيء ، ولا بالأكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء . لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال ، يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأكسجين بإمرار

الشرر الكهربي في مخلوط منهما . ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابلة الذوبان في الماء . وإذا ذابت فيه اتحدت به . وكونت حمضين اثنين : أحدهما : حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما يسميه القدماء وإليه يصير الحمض الآخر ، وقليل من حمض الأزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه .

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجا من غير خرق لأية سنة من سنن الله ، فهو الطريق الكهربي الذي يتكون به المطر . وكل الذي يلزم هو أن يتعدل التفريغ الكهربي . ويتكرر في الهواء تكرارا يتكون به مقدار كاف من تلك الأكاسيد الأزوتية يذوب في ماء السحاب ، ويحوله حمضيا لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المن من الله على الناس . إنه يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء ، إن شيئا من ذينك الحمضين لابد أن يترك في ماء العواصف ، وهذا ضروري للحياة لأنه يتحول في الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان ولو شاء الله لكثره في ماء المطر ، فأفسده على الناس . وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها ، فإن في قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ إشارة إلى تلك العوامل الكهربية التي يتكون بها المطر . يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة ، ومن يعرف أن الطريق الكهربي هو أحد الطرق العملية التي يمكن بها تحويل الأزوت الجوي إلى حمض .

وبعد فقد نقلت إليك هذه الصورة العلمية التي تلقي ضوءا باهرا على الآيات التي تتحدث عن السحاب والأمطار ، ولو أننا تابعنا كلام العلماء فيما يتصل بكل ما تحدث القرآن عنه من شئون الكون لراعنا أن القرآن وهو يجمل الحديث ويشير إلى أصول الحقائق العلمية إنما يقف من الزمن كله موقف الأستاذ المعلم للأجيال كلها ، لا تحصره جزئية علمية ولا تحدّه نظرية خاصة لأنه يضع الأصول العامة ويترك التفصيلات والجزئيات للزمن المتجدد والفكر المتأمل والأجيال المتعاقبة .

كفاه أن يضع أسباب العلم وخاماته . ثم يترك للأيدي العاملة والعقول المفكرة أن تجرب وتعمل في حدود ما رسم من إطار عام وحماية ما وضع من قانون شامل . وكفاك أن تعلم من أمر ربك أن مادة العلم وأداته هما هبة الله وأثر من آثار قدرته : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [سورة القمر : ٤٩] ، ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [سورة نوح : ١٣ - ٢٠] ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ [سورة النبأ : ٦ - ١٧] ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يس : ٣٦] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[سورة الرعد : ٢ - ٤] .

وإذا أنت تابعت حديث القرآن عن الكون راعك أن تراه يمضي في أثير بين السماء والأرض في لمحات خاطفة ، يعطيك من كل شيء شيئا ويجمل الحقائق الباقية

في آيات خالدة . والأيام تكشف أن الإعجاز في القرآن قائم في كل نواحيه ، فلا تنقضي عجائبه في كل شيء تطلبه : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [سورة الزمر : ٢٧ / سورة الروم : ٥٨] . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل : ٨٩] . ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٨] . ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٤] .

وإذا تأملت فيما سقناه لك من آيات أدركت كيف يشيد القرآن بالعقل ويرفع من قدره وهو يخاطبه بآياته ويحثه على التأمل والنظر ويندبه للعلم والمعرفة ! والمتأمل أيضا في الآيات الكونية وما أكثرها في كتاب الله وهي تمتد بالإنسان في آفاق بعيدة يرى من آيات الله ما يتبين معه أنه الحق – يجد نفسه أمام حقيقتين :

الحقيقة الأولى : من أين لمحمد ﷺ وهو الأمي الذي لم يتل من قبل من كتاب ولم يخطه بيمينه ؟

ومن أين للعرب جميعا العلم بأصول هذه العلوم ومعارفها وهي تتعرض لأدق ما يمكن أن يكشف عنه العلم في الأجيال المتعاقبة ؟

الحق أن هذه الآيات وحدها أكبر شاهد على أن هذا الدين ليس دين العرب وحدهم وليس خاصا بأمة دون أمة في زمان أو مكان ، وإنما هو دين الإنسانية جميعا مع اختلاف الزمان والمكان .

الحقيقة الأخرى : أن العلوم التجريبية وهي تمضي في مدار التجربة والملاحظة وتمتد في باب الكشف والتعرف على أسرار الكون تجد نفسها في ساحة القرآن تدين له بالفضل طوعا وكرها ، وقد أخرج العقل من ظلام الوهم وحيرة الشك إلى نور العلم وطمأنينة اليقين ، وانطلق به يطلب الإيمان بالله من تأمله في ميدان فسيح

لا تحد حدوده ولا تعرف نهايته ، فتأتي الأجيال الصاعدة وهي تتآخى إخاء يمتد مع الزمن موغلا في أعماق الماضي باسقا في سماء المستقبل . تتآخى إخاء بر ورحمة ، إخاء علم ومعرفة ، وما أجل إخاء العلم ! وما أبر اللقاء عليه !

ولا ينقص من شأنه أو ينال من قدره أن تدخلت فيه أخلاق الغدر والطمع فالسيف تحمله يد المجاهد الكريم كما يتقلده اللص اللئيم : ذاك يقيم به في الناس عدلا وأمنا ، وهذا يثير به فزعا وظلما .

والقرآن الكريم وهو يجعل الإيمان بالله والخشية منه قائمة على أساس التأمل والنظر في آيات الكون إنما يقيم مع العلم صمام الأمن ومع الحضارة أسباب السلام والرحمة .

وليس للعلم ما يصونه ويحفظه ، وليس للسلام ما يحوطه ويرعاه ، وللأمن ما يحققه ويثبت دعائمه إلا الإيمان بالله والخشية منه والاستعداد للقائه ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

[سورة المؤمنون : ٥٧ – ٦١] .

وبعد – مرة أخرى – فإن لله في النفس آيات جديرة بالتأمل والنظر . وحري بمن جهل قدرة الله في خلقه وغفل عن آياته في نفسه أن يخرج إلى الدنيا بعقل تحركه الشهوة ، وقلب يصرفه الهوى ، وأنانية يسوقها الطمع . وجدير بمن عرف نفسه أن يتقدم إلى الكون يستكمل فضائلها بعقل يبعثه اليقين . وقلب يصرفه الإيمان . ونفس يسوقها داعي الحق : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٢١] . وصدق الله العظيم .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾

[سورة فصلت : ٥٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

[سورة الأنبياء : ١٠٧] .

صدق الله العظيم

(٤) الرسول الكريم أكمل دليل على أن دعوة الإسلام للعالمين :

انتصف الليل أو كاد ، وأنا أقضي اليوم كله لأهيىء النفس للكتابة في شخصية الرسول الأعظم ﷺ .

ولست أدري لماذا تأخذني المهابة وأنا أتقدم للكتابة عنه ، مع أنه صلوات الله وسلامه عليه قال لمن جاءه وقد أخذته رعدة : « هون عليك ! إني لست ملكا ولا جبارا وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » فاطمأن الرجل واستقرت نفسه ونطق بحاجته .

فقام ﷺ فقال : « يا أيها الناس إني قد أوحي إليّ أن تواضعوا ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخوانا »[1] .

ولعل الرجل ظن أن مجلسه كمجلس الملوك يتكلف له أو تخشى العثرة فيه ، فأزاح الرسول ﷺ عن نفسه ما ألمّ به ، أو لعلها المهابة التي تحدّث عنها عليّ كرّم

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

الله وجهه فقال : كان ﷺ كريما جوادا ، وفياضا سخيا ، صادق القول ، لين العريكة ، من جالسه أحبه ومن رآه بديهة هابه .

لكن المهابة التي أشعر بها ليست من هذا النوع الذي اعترى الرجل ، فإنني أوقن يقينا لا يعتريه شك أن محمدا ﷺ مثال الكمال الخلقي والبر الإنساني ، وأنه الرحمة المهداة للعالمين ، فلا يجد المتقدم إلى ساحته إلا البر في أكمل صوره ، والإحسان في أجلّ معانيه ، والعفو عن مسيئيه فضلا عن محبيه .

قال أنس : « كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك ! فسكت النبي ﷺ ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي . قال الأعرابي : لا . قال : لِمَ ؟ قال : لأنك لا تكافيء بالسيئة السيئة ، فضحك النبي ﷺ ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر »[1] .

إن المهابة التي أشعر بها وأنا أسطر سطورا أشير فيها إلى شخصه الكريم من النوع الذي يعتري الإنسان إذا تحدث عمن يملأ عليه نفسه وحسه ويملك زمام قلبه وعقله ويسيطر على مشاعره فيض من نوره ويدين في حياته كلها لفضل الصادق الأمين الذي بلّغ عن ربه .

فإذا هو تهيب الحديث عنه فلأنه مأخوذ بكل شيء فيه فإن أي جانب من جوانبه تجتمع عليه الأجيال المتعاقبة لتسطر ما عرفت عنه ، وتكتب ما أفادت منه ، تجد نفسها قد قصرت عن الإحاطة .

---

(١) الشفاء جـ ٨٢/٢ ، المواهب جـ ٢٥٣/٤ رواه أبو داود والبخاري .

أليس خلقه القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » [١] ؟

أليس محمد ﷺ قد وصف القرآن فيما وصفه بقوله : « لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه » .

فكيف يمكن لأي إنسان من أتباعه في جيل أن يكتب فلا تأخذه مهابة ؟ وهو يعلم أنه نبي الأجيال كلها فلا يمكن تحديد أمره في مسطورات جيل أو مخطوطات أجيال ، إن أربعة عشر قرنا مضت من يوم بعثته لم توقف مده ولم تحجب شمسه ، ووالله لا أتزيد في شيء إذا قلت : كأن محمدا بعث اليوم وكأنه حي بيننا لم يفارقنا ولم نفارقه ! وتسألني : كيف ؟ أقول : عليك بالقرآن تجد مصداق ما قلت . وسيكون هذا شعور الأجيال الوافدة من بعد وهي تلتقي على كتاب الله فتجد نفسها بين يدي محمد رسول الله تتأسى به وتشهد قرآنها العملي فيه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] .

فما تلا الإنسان شيئا من كتاب الله ولا استمع إلى شيء إلا تمثل الرسول أمامه يتلقى من أمين السماء ما يصون به أمانات الأرض وتمثله ﷺ متخلقا بخلق القرآن صادرا عن أمره متأدبا بأدبه .

وما وقف الإنسان عند الآيات التي تعاتبه في أمر قد اجتهد فيه واستعمل أقصى ما يمكن أن تقوم به حكمة بشر رسول إلا أدرك أنه رحمة السماء سيقت إلى الأرض وميزان الحق قام بين الخلق .

---

(١) الشفاء ص ٧٤/١ .

تأمل شيئا من هذا التوجيه وذاك العتاب ، عتاب الله له في أمر صحابي ضرير .

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾

[سورة عبس : ١ - ١١] .

وسبب النزول كما هو معلوم أن ابن أم مكتوم – عمرو بن قيس – وكان أعمى أسلم قديما بمكة – جاء يوما إلى النبي ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ويحاول هدايتهم له رجاء أن يسلم بإسلامهم خلق كثير ، فقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله . وكرر ذلك والنبي ﷺ متشاغل بالقوم من قريش ، رجاء أن يشرح الله صدورهم للإسلام وكره أن يقطع كلامه فعبس وأعرض عنه ، وبعد انصراف القوم ورجوعه ﷺ إلى بيته نزل الوحي بهذه الآيات .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا رآه ويقول : « مرحبا بمن عاتبني فيه ربي » ويبسط له رداءه ، وقد استخلفه على المدينة مرتين .

قلت أن الرسول قد اجتهد واستعمل أقصى ما يمكن أن تصل إليه حكمة بشر رسول في تقديره أن عمرو قد سعد بالإسلام ، وهو حريص على ألا تفوت هذه الفرصة دون أن يبلغ سادة القوم رسالة ربه وهو يتمنى في حرارة أن تضمهم حظيرة الإسلام وأن ينتفعوا بهديه والفرصة أمام عمرو واسعة والرسول لم يشغل عنه كراهة له أو تصغيرا لشأنه ، وإنما شغل عنه طمعا في إيمان غيره ممن يكيدون للإسلام ويصدون عنه ، وهذه كما قلت أقصى ما يمكن أن تميل إليه حكمة رسول بشر ، فماذا كان من أمر السماء وحكمة الإلٰه ؟

عاتبه الله بما قرأت ، ولامه على ما فعل ، ذكرى خالدة تسجل في كتاب

الخلود لتكون عبرة لمحمد وهداية للبشر .

هذه حالة من حالات العتاب لرسول الله ﷺ .

ألست تلمس في صدق ويقين أن للإنسانية جميعا حظها في هذا الرسول الكريم مع اختلاف الزمان والمكان لا فرق بين غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وحاكم ومحكوم ، ولا تفرقة بين أسود وأبيض وشرقي أو غربي ، عربي أو أعجمي هو للإنسانية جميعا في مساواة كاملة وأخوة بارة ورحمة شاملة .

وهو بينها ميزان الحق وآية الصدق وقانون العدل .

هو الأسوة الحسنة لها في كل شأن .

هو رمز الأمانة الصادقة لا يلهيه عن أدائها خطب نازل أو خطر محدق ، ألم تجمع قريش على قتله ، وقد نالت منه ومن أصحابه وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم لأنهم يقولون : ربنا الله ؟ ألم تحاصر داره ؟

لو أن شخصا مكانه أي شخص ألا يستبيح لنفسه ولأصحابه أي شيء يقع تحت يده من قريش ؟ من هذا الذي يتذكر ودائع الناس في لحظة قد أجمع فيها قادة الناس على قتله ؟

إن واحدا فقط من عباد الله في هذا الوجود كله هو الذي يفعل هذا : محمد الصادق الأمين في اللحظة التي تحاصر فيها داره وتشهر سيوف القوم لقتله . يرسل إلى ابن عمه الفتى الشاب علي بن أبي طالب يأمره أن يبيت مكانه ليصبح فيرد الودائع إلى أهلها والأمانات إلى أصحابها .

لا أكتم القارئ شيئا ولا أتزيد عليه في شيء إذا قلت : إن خلقا كهذا لا يمكن أبدًا إلا أن يكون صاحبه محمد رسول الله خاتم النبيين ! كما لا يمكن أن يكون فاعله إلا قدوة الخلق أجمعين فإن مرتبة الكمال في كل شيء تعني أن يكون صاحبه قدوة الخلق في كل شيء ، إذ ليس بعد الكمال الحقيقي مطمع لبشر ، وليس

من ورائه غاية لرسول ، وكذلك كان محمد ﷺ مثال الكمال الخلقي في كل شيء ، لذا وعى التاريخ له وحفظ عنه ، وقام بين أيدينا سجل ناصع يقرؤه القارئ فيرى نفسه مع الرسول بصفته وهيئته ، ومأكله ومشربه ، وقيامه وقعوده ، وسعيه وعمله ، وطيبه وملبسه ومعاشرته لأصحابه وأهل بيته .

يراه قائما في المسجد يؤم الناس ويعظهم ، وفي الميدان يقود المجاهدين ، وينظم صفوفهم ، ومع اليتيم والضعيف والخادم في البيت وفي الطريق يقضي حاجتهم .

يراه في كل شيء في بسمته النيرة وحقيقته الكاملة من لحظة ولادته إلى أن لَقِيَ ربه ، في داخل بيته وخارجه صفحة مشرقة ليس فيها ما يطوى أو ينكر ، لأنها بيضاء ناصعة نقية طاهرة حنيفية سمحة

وسل كتب الحديث ترشدك ، ومصنفات المغازي تنبئك .

سل التاريخ الإسلامي وما أجل شأنه يعطيك خبره !

واستنبئ مسطرات الشمائل والدلائل وهي ترسم أثره .

وقبل هذا وبعده اقرأ كتاب الله تعرفه وتأمل مقاصده وحقيقته تجده ، عش في روضة القرآن تحيا في صحبة الرسول ، وصل حياتك به تصل فؤادك بالنور : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [سورة المائدة : ١٥ ، ١٦] ، ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء ١٧٤] .

نعم في دوحة القرآن وبين آياته تعرف محمدا وتراه ، وتدرك من أمره أنه جاء برسالات الأنبياء جميعا ، ألم تقرأ في سورة الشورى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... وَصَّيْنَا به إِبْرَاهِيم وموسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ فدينه لم يدع فضلا لماض إلا سجله ، ولم يترك

obeikandi.com

أثرا لنبي فيه عبرة إلا وضحه ، فهو دين نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد ، لو أنهم خرجوا إلى الخلق ما وسعهم إلا الإيمان به والدعوة إليه وصدق رسول الله : « لو أن موسى حي ما وسعه إلا اتباعي » .

لكننا ونحن في مجال الحديث عن شخصه الكريم من زاوية يتضح معها أنه ما كان ولن يكون إلا رحمة للعالمين ، نود أن نقصر الحديث على أمور ثلاثة :

أولها : هل هناك شيء من سيرته خفي على الناس حتى تعدم القدوة في أي أمر من الأمور ، فإن ذلك شرط أساسي فيمن تجب القدوة به أن تكون حياته كلها معلومة للناس ؟

ثانيها : وهل ما علمنا من سيرته وسلوكه وما يثبت من أخلاقه وأعماله يمكن أن يكون نبراسا للخلق في كل زمان ومكان ؟

ثالثها : كيف تتم القدوة به وعلى أي أساس تكون ؟

أما أن شيئا من سيرته في حياته كلها داخل بيته وخارجه قد خفي على الناس فذاك ما لا يمكن أن يقول به أشد الناس عداوة للإسلام .

وإننا ننقل إليك شيئا من شهادة رجل من رجال الإنجليز وهو باسورث سميث من بعض ما أورده السيد سليمان الندوي في كتابه : « الرسالة المحمدية » يقول : « ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شيء وتصل إلى كل شيء لاشك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئا ، ولا نتبين حقيقتها أبدا ، أو تبقى منها أمور مجهولة ، بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله من نشأته إلى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ونعلم أول تفكيره ، وتطوره ، وارتقائه التدريجي ، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة .

ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته وأن عندنا (القرآن)

لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظا مصونا » .

إن حياة الرسول كلها معلومة للناس لا يخفى منها شيء أي شيء ، ما كان يعمله في داخل بيته من غسله ووضوئه ونومه ومعاشرته لأزواجه ومأكله ومشربه وما يدور في بيته من شئون وما يعد من طعام وما يوقد من سراج ، ما يلبسه وما يتطيب به ، وهيئة فراشه ومداعبته لأزواجه وملاطفته لأهل بيته ، ذكره لربه ، وقوفه في الصلاة بين يديه وما يتلوه من قرآن وما يواظب عليه من سنن وما يحرص عليه من نوافل ، في البيت تسع زوجات يحدثن عن كل ما يقع منه في أخص شئونه دون حرج .

وفي خارج البيت حيث الأعين ترصده والقلوب تتطلع إليه والنفوس دائما مشوقة لرؤيته ، لا يكاد الباب يفتح ولا يكاد محمد ﷺ يخرج إلى الناس في أي شأن من شئونه حتى ترى من يسجل كل شيء عنه حتى حركات يده وقسمات وجهه ، وهيئة مجلسه وتبسمه ، يسجلون ما ينطق به وما يصدر عنه من قيام أو قعود أو انتقال .

والصحابة جميعا حريصون على أن يروه ، وأن يسمعوا منه بقدر حفاوتهم وحرصهم على التمسك بسنته والاهتداء بهديه ، وإن جماعة من الصحابة سموا بأهل الصفة ، وهبوا أنفسهم لهذه المهمة ، مهمة التسجيل ومتابعة الرسول لإثبات كل ما يصدر عنه .

سل أبا هريرة والمحدثين ، سل صحابة رسول الله ، وسل أمهات المؤمنين . سلهم جميعًا ينبؤك أن شيئا من أمر رسول الله لم يكن خافيا على أحد وأن كل أمره حفظته القلوب ووعته العقول وشرفت به النفوس ، والذين حرصوا على أن يحفظوا حياة صحابته وسيرتهم ونسبهم وتاريخ إسلامهم ويكتبوا كل شيء عنهم ، يكتبون ذلك عن مائة ألف مات عنهم رسول ، لا تعجب أن ترى منهم هذه الحفاوة البالغة بكل شأن من شئون نبيهم ، لذا رأيناهم يقصون أمره في كل شيء حتى إذا ذهب

إلى الخلاء ، فيقولون : كان إذا ذهب الخلاء أبعد ، وإذا استبطأوه طلبوه .

إن صحابة رسول الله ﷺ لم يتركوا شأنا من شئونه إلا تحدثوا عنه . ولم يعرف في تاريخ البشر قاطبة أن نبيا من الأنبياء . أو عظيما من العظماء اشتهرت سيرته ، وعرف كل شيء عنه مثل ما تم لمحمد ﷺ خاتم النبيين .

ولذا يمكن لكل إنسان كائنا من كان وعلى أية حال وفي أية سن أن يقتدي به وأن يجد من حياته ما يتخذه مثلا أعلى له .

يقول السيد سليمان الندوي في كتابه : « الرسالة المحمدية » : « إذا كنت غنيا ثريا فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعه بين الحجاز والشام وحين ملك خزائن البحرين .

وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجرا إليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئا .

وإن كنت ملكا فاقتد بسنته وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم .

وإن كنت رعية ضعيفا فلك في رسول الله أسوة حسنة ، أيام كان محكوما بمكة في نظام المشركين .

وإن كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في بدر وحنين ومكة .

وإن كنت منهزما – لا قدر الله ذلك – فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفاقه المثخنين بالجراح .

وإن كنت معلما فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد .

وإن كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيا مسترشدا .

وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي .

وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف ، وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر إليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به .

وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده ، فظهر الحق على يدك ، وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها .

وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر إليه ﷺ قد ملك ضياع بني نضير وخيبر وفدك : كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها إلى من أحسن القيام عليها ؟

وإن كنت يتيما فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله ، وقد توفيا وابنهما صغير رضيع .

وإن كنت صغير السن فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية .

وإن كنت شابا ناشئا فاقرأ سيرة راعي الغنم بمكة .

وإن كنت تاجرا مسافرا بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بصرى .

وإن كنت قاضيا أو حكما فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس . ليضع الحجر الأسود في محله ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل يستوي عنده منهم الفقير المعدم والغني المثري .

وإن كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة .

وإن كنت أبا أولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين .

وأيًا ما كنت وفي أي شأن كان شأنك فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أية حال بت أو أضحيت فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش » .

إن تاريخ محمد ﷺ بحقائقه المشرقة هو أثبت حقائق التاريخ ، وسيرته هي أكمل ما عرفت الإنسانية من سيرة رسول فلا عجب أن تطلب السماء إلى الناس جميعا أن يتخذوه قدوة صالحة وأسوة حسنة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] .

لم لا وهو في مرتبة الكمال البشري ؟ فللناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأسباب معيشتهم أسوة فيه ، لا من لفظه الكريم وحكمته البالغة فحسب ، بل من سلوكه وعمله وسعيه وخلقه .

فما أمر بشيء إلا كان أسبق الناس إليه ، وما نهى عن شيء إلا كان أبعد الناس عنه :

إن أمر بالصلاة فأداها من أداها في اليوم فرضا سبع عشرة ركعة صلى هو الفريضة وزاد عليها متطوعا ، حتى تبلغ خمسين أو ستين ركعة . يقف بين يدي الله في جوف الليل حتى تتورم قدماه ، وزوجته بنت الصديق تقول له شفقة عليه من طول القيام : « إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فيجيبها – مدركا لما طلبت من التخفيف – : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟ .

وإن أمرهم بالزكاة فأنفقوا قدرا من مالهم لم يدخر هو مالًا قط ، يأتيه المال وهو كثير فينفقه ويمضي الهلال ثم الهلال ولا يوقد في بيت رسول الله نار ، وليس له

من طعام إلا الأسودان : التمر والماء !

وتتألم بنته فاطمة من كثرة الخدمة وهي تحمل الماء وتدير الرحى ، وتطلب أن يعينها بخادم ، فيعلمها كلمات تذكر بها الله ، ويرى في جيدها عقدا من ذهب فيقول لها : أترضين أن يكون لك عقد من نار ؟ فتبيعه وتشتري به عبدا تعتقه !

وهو الذي لم ينكر على أحد من أصحابه أن يقتني مالا يؤدي حق الله فيه ، ولكنه ﷺ يأخذ نفسه بأشد مما يأمرهم به ، فلا يبيت على فراشه أو يطمئن في منامه وفي بيته درهم أو دينار ، وكفاك أن تعلم أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي على صاع من شعير !

وتأمله حتى وهو لا يملك شيئا حين يُسأل ماذا يجيب ؟

« جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله : فقال : ما عندي شيء . ولكن ابتع عَلَيَّ فإذا جاءنا شيء قضيناه ! فقال عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا ! فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه وقال : بهذا أمرت » [١] .

وإن أمرهم بالصوم – صوم رمضان – وليس على المسلمين غيره أو نهاهم عن الوصال في غيره واصل هو باليومين والثلاثة حتى يظن أن لا يفطر كما قالت عائشة رضي الله عنها : « ربما صام شهرين متتابعين شعبان ورمضان ، وكثيرا ما كان يصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع عدا ما يصومه من الأيام البيض ، وست من شوال ، ويوم عاشوراء .

وإن دعا إلى العفو والحلم والاحتمال كان داعيا بعمله : لما كسرت رباعية الرسول ﷺ يوم أُحد وشج وجهه . شق ذلك على أصحابه . وقالوا : لو دعوت

---

(١) رواه الترمذي « الشفاء » جـ ١/٨٧ .

عليهم . فقال : « إني لم أبعث لعانا ، ولكني بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » (١) .

تقول عائشة رضي الله عنها : « ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله . وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله » (٢) .

« ولقد جاء زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضى النبي ﷺ دينا عليه فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب مطل ! فانتهره عمر ، وشدد له في القول ، فابتسم النبي ﷺ وقال : أنا وهو – كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ! تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي ! فقال زيد : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما . يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما . ثم أسلم » (٣) .

« وزيد ابن سعنة هذا كان من أجل أحبار اليهود وأكثرهم مالا ، حسن إسلامه ، وجاهد في مواقع كثيرة ، ومات في غزوة تبوك في رجوعهم إلى المدينة ، وقد قال عند إسلامه : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، وتصدق بنصف ماله على فقراء المسلمين ، شكرًا لله على نعمة الإسلام ، وأسلم أهل بيته كلهم إلا رجل واحد هرم غلبت عليه شقوته » (٤) .

وهكذا كل خصال الخير ومكارم الأخلاق يقتدي فيها بسيد الخلق :

ففي خلق الشجاعة والنجدة تجده فيهما كالطود الأشم ، فرّ الكماة والأبطال

---

(١) الشفاء جـ ١/٨١ .

(٢) الشفاء جـ ١/٨٣ .

(٣) الشفاء جـ ١/٨٣ .

(٤) المواهب جـ ٤/٢٥٣ ، ٢٥٤ ، النبوية جـ ٣/٢٦٨ .

وهو ثابت لا يتزحزح مقبل غير مدبر مستقر القلب لا يجزع .

عن أنس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا ، وقد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عرى . والسيف في عنقه وهو يقول : لن تراعوا » (١) .

وفي رواية عن أنس أن أهل المدينة فزعوا مرة ، فركب ﷺ فرسا لأبي طلحة كان يقطف أو فيه قطاف ، فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بحرا . فكان بعد لا يجارى .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « ما رأيت أشجع ، ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ » (٢) .

وعن علي رضي الله عنه قال : « إنا كنا إذا حمي البأس واشتد واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » (٣) .

سأل رجل البراء قال : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان – يقصد أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب – آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول : « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » .

وفي فضيلة الجود والكرم والسماحة نسمع ابن عباس فيما رواه البخاري يحدثنا فيقول :

---

(١) الشفاء جـ ١/٨٩ .
(٢) الشفاء جـ ١/٨٨
(٣) الشفاء جـ ١/٨٩ ، المواهب جـ ٤/٢٩٣

كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة .

وعن جابر بن عبد الله : « ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال : لا »[١] .

وعن عبد الله بن أبي بكر ، عن رجل من العرب : « زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين . وفي رجلي نعل كثيفة فوطئت بها على رجل رسول الله ﷺ . فبعجني بعجة بسوط في يده ، وقال : بسم الله أوجعتني . فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ فانطلقت وأنا متخوف . فقال لي رسول الله ﷺ : إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني فبعجتك بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها »[٢] .

وأما عن الحياء والإغضاء فكان رسول الله ﷺ أشد الناس حياء وأكثرهم إغضاء .

عن أبي سعيد : « كان رسول الله ﷺ أشد الناس حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رفيق الظاهر لا يشافه أحدا بما يكرهه ، حياء وكرم نفس »[٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها : « كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول : كذا ؟ ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ؟ ينهى عنه ولا يسمي فاعله »[٤] .

والحياء الذي نتحدث عنه قد حدده رسول الله ﷺ حين قال : « استحيوا

---

(١) الشفاء جـ ١/٨٦ .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٣/٣٧٤ .
(٣) الشفاء جـ ١/٩١ .
(٤) الشفاء جـ ١/٩١ .

من الله حق الحياء ، قالوا : يا نبي الله ، إننا لنستحي والحمد لله . قال : ليس ذلك . ولكن الاستحياء من الله حق الحياء ، أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » (١) .

وهو الذي عناه بقوله ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير » (٢) .

وأما حسن العشرة والأدب وبسط الخلق فقد قالت عائشة : « ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط ولا ضرب امرأة ، ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله » (٣) .

وعن علي رضي الله عنه قال : « كان ﷺ أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة » (٤) .

وقد سئلت عائشة كيف كان رسول ﷺ إذا خلا في بيته ؟

قالت : « كان ألين الناس ، بساما ضاحكا ، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه يضيق بها على أحد » (٥) .

وعن جرير بن عبد الله قال : ما حجبني رسول الله ﷺ قط منذ أسلمت ولا رآني إلا ابتسم .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في

---

(١) رواه الترمذي والطبراني .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) الشفاء جـ ٩٢/١ .
(٥) المواهب جـ ٢٦٣/٤ .

حجره ، ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر .

وعن أنس قال : خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته ، ولا شيء تركته لم تركته ؟ ولكن يقول : « قدر الله وما شاء فعل ، ولو قدر الله كان ولو قضى لكان » .

وما سبني من سبة ، ولا ضربني من ضربة ، ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني أحد قال : دعوه ولو قدر شيء كان .

وصدق الله : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩] .

وهذا توجيه الحق له : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت : ٣٤] .

وأما عن حياته الزوجية فليتعلم الأزواج ولتتأمل الزوجات لطف الإسلام وسماحته وفطرته وبشاشته ممثلة في رسول الإنسانية محمد ﷺ . عن عائشة قالت : « خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقالَ للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال تعالى حتي أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى حملت اللحم وبدنت ونسيت . خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس : تقدموا ثم قال : تعالي أسابقك ، فسبقني فجعل يضحك ويقول : هذه بتلك » [١] .

وعن عائشة قالت : « ما رأيت صانعة طعاما مثل صفية ، أهدت إلى النبي

---

(١) رواه أحمد وأبو داود مختصرا

ﷺ إناء من طعام ، فما ملكت نفسي أن كسرته ، ثم رجعت إلى نفسي فندمت ، فقلت يا رسول الله ما كفارته ؟ قال : إناء كإناء ، وطعام كطعام » [١] . وفي رواية عن عائشة قالت : « أخذت القصعة من بين يديه فضربت بها وكسرتها فقام النبي ﷺ يلتقط اللحم والطعام وهو يقول : غارت أمكم » [٢] .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله ، ويرقع دلوه ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ويقيم البيت ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق » [٣] .

وأما عن تواضعه فستراه عنوانا لكماله الخلقي ، عن عمر قال : « قال رسول الله ﷺ . لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » [٤] .

وعن أنس قال : « إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت » [٥] .

وعن جابر بن عبد الله : « دخل على رسول الله ﷺ والحسن والحسين على ظهره راكبين ، فقال جابر : نعم الجمل جملكما فقال ﷺ : ونعم الراكبان هما » [٦] .

« دخل الحسن والرسول ﷺ ساجد فركب على ظهره ، فأبطأ في سجوده

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي .
(٢) المواهب جـ ٤/٢٧ .
(٣) رواه أحمد وابن حبان .
(٤) رواه البخاري والترمذي
(٥) رواه أحمد .
(٦) النبوية جـ ٤/٢٨

حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه : يا رسول الله قد أطلت السجود . قال : إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله » (١) .

وعن أبي قتادة : « لما قدم وفد النجاشي قام النبي ﷺ يخدمهم ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك ، قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : « ما عاب النبي ﷺ طعاما قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه » (٣) .

وعن عائشة قالت : « ما خيّر رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها » (٤) .

« لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحا على رأس جيشه العظيم طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمة الرحل تواضعا لله عز وجل » (٥) .

وعن أنس قال : « مر النبي ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر « على صبي لها » فقال لها : يا أمة الله اتقي الله واصبري ، فقالت : إليك عني فإنك خلو من مصيبتي فجاوزها ومضى فمر بها رجل « الفضل بن العباس » فقال لها : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قالت : ما عرفته . قال : إنه لرسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت ، فجاءت إلى بابه ، فلم تجد عليه بوابا ، فقالت : لم أعرفك ، فقال : إنما

---

(١) مواهب جـ ٦٨/٤ .

(٢) رواه البيهقي وابن إسحاق – مواهب جـ ٢٦٦/٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه البيهقي وابن إسحاق – الشفاء جـ ١٠٢/١ – النبوة جـ ٢٨١/٣ .

الصبر عند الصدمة الأولى » [١] .

وعن أبي مسعود البدري قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال : هون عليك ، فإني لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ! فنطق الرجل بحاجته ، فقام ﷺ فقال : أيها الناس إني قد أوحي إليّ أن تواضعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد وكونوا عباد الله إخوانا » [٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما نقصت الصدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » [٣] .

وأما عن الرحمة والشفقة والرأفة – فتعال معي لنرى مصداق قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] .

« جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال : آحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه ﷺ ، وزاده شيئا . ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا . فقال له النبي ﷺ : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك . قال : نعم ، فلما كان من الغد أو العشي جاء . فقال النبي ﷺ : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال ﷺ : مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين

---

(١) الشفاء جـ ١/١٠٢ النبوية جـ ٣/٣٨١

(٢ ، ٣) رواهما البخاري ومسلم

يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها ، واستوى عليها وإنّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » [١] .

وعن عائشة أن النبي ﷺ : « كان يصغي إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها » [٢] .

عن عائشة قالت : « يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب . فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك . وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال ، وسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

فقال له رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[٣] .

وكان قد ذهب إلى الطائف يدعوهم إلى الله فآذوه أشد الأذى ، وقالوا : اخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم ، فوقفوا له سماطين وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه وزيد بن حارثة يقيه نفسه حتى أصابه شجاج في رأسه ، فانصرف

(١) الشفاء جـ ٩٦/١ .
(٢) المواهب جـ ٢٦١/٤ .
(٣) رواه مسلم جـ ١٥٤/٢١ والبخاري جـ ١٤٣/٢ .

هائما ودعا الدعاء المشهور : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلّا بك » .

ولما أراد أن يدخل مكة قال له زيد بن حارثة : « كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال : يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » [١] .

المزاح والملاطفة : تأمل معي نفس الكريم الحر وهو يلاطف أصحابه ويداعبهم ويستمع إلى ملاطفتهم ويتقبل مزاحهم في سماحة وطهر وحسن مودة وحب مع أنه كان يمزح ولا يقول إلا حقا ، ما أطيبك وأكرمك يا رسول الله !

جاءت إلى النبي ﷺ امرأة يقال لها أم أيمن . فقالت : يا رسول الله إن زوجي يدعوك . قال : ومن هو ؟ أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت : والله ما بعينه بياض ! فقال ﷺ : إن بعينه بياضا ، فقالت : لا والله ، فقال ﷺ : ما من أحد إلا وبعينه بياض ! .

« زهير بن حرام : رجل من أهل البادية ، كان يهادي النبي ﷺ بموجود البادية وما يستطرف منها ، وكان النبي ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، وكان ﷺ يقول : زهير باديتنا ، ونحن حاضرته ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وكان رجلا دميما ، فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع في السوق متاعا له ، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي

---

(١) زاد المعاد جـ ٤٦/١ .

ﷺ فجعل يمسح ظهره في صدر النبي ﷺ ، وجعل الرسول ﷺ يقول : من يشتري العبد ؟ فقال زهير : يا رسول الله إذن تجدني كاسدا ، فقال رسول الله ﷺ : أنت عند الله غال » [١] .

« وكان نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول هذا أهديته لك ، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه أحضره إلى النبي ﷺ ، فيقول : أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : أو لم تهده لي ؟ فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكل فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه » [٢] .

« خرج أبو بكر تاجرا إلى بصرى ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري ، وسويط ابن حرملة . وقد كانا من الذين شهدوا بدرا ، وكان سويط على زاد أبي بكر فجاءه نعيمان ، وقال له : أطعمني ، فقال : لا حتى يأتي أبو بكر ، وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزاحا فيه دعابة ، فقال لسويط : لأغيظنك ، فذهب إلى ناس مروا بهم ، فقال لهم نعيمان : تشترون مني عبدا لي ، قالوا : نعم ، قال : إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده ، أنا رجل حر . فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا عليّ عبدي ، قالوا : لا ، بل نشتريه ولا ننظر في قوله ، فاشتروه منه بعشرة قلائص ، فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا ، فجاء القوم به وقالوا قد اشتريناك ! فقال : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فوضعوا عمامته في عنقه فقال لهم : إنه يتهزأ ، ولست بعبده ! فقالوا له : قد أخبرنا بخبرك ، فطرحوا الحبل في عنقه وذهبوا به ولم يسمعوا كلامه ، فجاء أبو بكر رضي الله عنه ، فأخبره خبره فذهب هو وأصحابه ، واتبعوا القوم ، وأخبروهم أنه

(١) رواه الترمذي – مواهب جـ ٢٧٢/٤ .

(٢) المواهب جـ ٢٧٣/٤ .

يمزح ، وردوا عليهم القلائص وردوا سويطا منهم ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر ، فضحك رسول الله ﷺ من ذلك حولا كاملا » [١] .

« جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نحرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا إلى اللحم ، ويؤدي رسول الله ﷺ حقها ، فنحرها نعيمان ، فخرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح ، واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ﷺ فقال : من فعل ؟ قالوا : نعيمان ، فاتبعه النبي ﷺ يسأل عنه ، فوجده في دار ضباعة بن الزبير بن عبد المطلب ، قد اختفى في خندق ، وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ، ورفع صوته ما رأيته يا رسول الله وأشار بأصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله ﷺ ، وقد تعفر وجهه بالتراب ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني . فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم ﷺ ثمنها » [٢] .

الوفاء والصلة : عن عائشة قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها ، فارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها ، وأحسن بالسؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، إن حسن العهد من الإيمان .

عن أنس قال : « كان النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال : اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة خديجة ، إنها كانت تحب خديجة » [٣] .

عن عمرو بن السائب قال : « إن رسول الله ﷺ كان جالسا يوما فأقبل

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٣/٣٧٤ .

(٢) السيرة الحلبية جـ ٣/٣٧٥ .

(٣) الشفاء جـ ١/٩٩ .

أبوه من الرضاعة ، فوضع ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه » [١] .

أما الأمانة والعدل والصدق : « فقد عرف ذلك عنه من طفولته ، وكان في ذلك كله مضرب المثل : لما اختلف أكابر قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود حكّموا أول داخل عليهم ، فإذا أول داخل محمد ﷺ ، .وذلك قبل أن يبعث ، فقالوا : هذا محمد الأمين قد رضينا به ! ففرش رداءه ، ووضع الحجر عليه ، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بطرف ، وهو آخذ من تحته ، ثم أخذه فوضعه موضعه » [٢] .

« التقى الأخنس بن شريق بأبي جهل يوم بدر ، فقال له : يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا فيما بيننا ، أخبرني عن محمد أصادق أم كاذب . فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش » [٣] .

« عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » [٤] .

وعن عمر بن الحمق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما رجل آمن رجلا على دمه – ثم قتله – فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافرا » [٥] .

---

(١) الشفاء جـ ١/١٠٠ .

(٢) رواه أحمد والحاكم والطبراني – الشفاء جـ ١/١٠٤ .

(٣) رواه البيهقي والطبراني – النبوة جـ ٣/٣٠٥ .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا قال فيها : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (١) .

عن عائشة قالت : « ما لمست يده ﷺ يد امرأة قط لا يملك رقها » (٢) .

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، والله قد نزل فيكم أمر ما أتيتم فيه بحيلة قد كان محمد فيكم غلامًا حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم قلتم : إنه ساحر ! لا والله ما هو بساحر وقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم ، وقلتم : إنه كاهن ، والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم وقد قلتم : شاعر ! والله ما هو بشاعر ، وقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون ! والله ما هو بمجنون ، فما هو بخنقة ولا تخليط ولا وسوسة . فانظروا في شأنكم ، والله قد نزل بكم أمر عظيم » (٣) .

عن الربيع بن خيثم قال : « كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام » (٤) .

قال ﷺ : « والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض » (٥) .

وأما عن القناعة والعفة فتأمل حال من كانت تأتيه الأموال فينفقها عن يمين وشمال ولما كان يوم غنائم حنين أعطى النبي ﷺ من حقه في الغنيمة جماعة من المؤلفة قلوبهم لكل واحد منهم مائة من الإبل ولجماعة آخرين لكل واحد خمسين من الإبل .

---

(١) رواه أحمد والبزاز والطبراني في الأوسط .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه البيهقي – النبوية جـ ٣٠٦/٣ – الشفاء جـ ١٠٥/١ .

(٤) الشفاء جـ ١٠٤/١ .

(٥) الشفاء جـ ١٠٤/١ .

وذكر صاحب المواهب [١] من أصحاب المائة ثمانية عشر ومن أصحاب الخمسين ستة ثم ذكر ثلاثا وثلاثين ممن أعطاهم عطاء كبيرا ، يقول : « لم أر من حدود » [٢] .

هذا في غزوة واحدة من غزواته ﷺ فتأمل من كانت تأتيه هذه الأموال .

عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها كانت تقول : « والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال . ثلاثة أهلة في شهرين . وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار . قال : قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه » [٣] .

عن عائشة قالت : « لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين » [٤] .

عن عائشة قالت : « كان فراش رسول الله ﷺ من آدم [٥] وحشوه من ليف » [٦] .

عن عمرو بن الحارث قال : « ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها ، وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة » [٧] .

(١) الشفاء جـ ٣/٣٧ .
(٢) المواهب جـ ٣/٣٦ .
(٣) رواه مسلم جـ ١٨/١٠٧ ، البخاري جـ ٤/٨٣ .
(٤) رواه مسلم جـ ١٨/١٠٨ .
(٥) هو الجلد المدبوغ .
(٦) رواه البخاري ومسلم .
(٧) رواه البخاري جـ ٣/٦٥ .

عن عائشة قالت : « لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعا قط ، ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول : يا عائشة ، ما لي وللدنيا إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم ، فأجدني استحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم ، وما من شيء هو أحب إليّ من اللحاق بإخواني وأخلائي فما أقام بعد إلّا شهرا حتى توفي ﷺ »[١] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني مجهد ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى فقالت : مثل ذلك ، حتى قلن كلهن : مثل ذلك ، لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، فقال : من يضيّف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى رحله . فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا . إلا قوت صبياني ، قال : فعلليهم بشيء ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل ، قال : فقعدوا وأكل الضيف . فلما أصبح غدا على النبي ﷺ . فقال : قد عجب الله من صنيعكما لضيفكما الليلة .

وفي رواية أن الرجل هو أبو طلحة »[٢] .

وأما الخوف والخشية : فتأمل أمر رسول الله فيهما ، فإنك ستدرك أنها الحنيفية السمحة والفطرة النقية ، والاعتدال الذي يفي بكل حق . خوف وخشية في عدل وإنصاف مع علم ومعرفة .

---

(١) الشفاء جـ ١/١١١

(٢) رواه مسلم جـ ١٤/١١ ١٣

عن أنس بن مالك قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (١) .

عن عائشة قالت : « كان ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون .

قالوا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله ، قد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فغضب حتى عرف الغضب في وجهه ، ثم قال : إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » (٢) .

وعن عائشة قالت : « إن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه ، وأنا أسمع من وراء الباب ، فقال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب ، أفأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ، فقال : لست مثلنا يا رسول الله . قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال : والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي » (٣) .

أرأيت أنها حنيفية سمحة فطرية طاهرة ، تنشد الإنسان للكون ، وتفتح الكون للإنسان ، لا تنعزل به في خدمة جانب من نفسه دون جانب ، بل تسعى به نحو غايته في اعتدال يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا ويستعد للآخرة كأنه يموت غدا ؟

---

(١) رواه البخاري جـ ١٥٨/٣ .

(٢) رواه البخاري – المواهب جـ ٢٨٩/٤ .

(٣) رواه مسلم .

وبعد : أفليست هذه الخصائص النفسية الكريمة مما يجتمع بها شمل الناس ؟ وهل يمكن أمر الناس أن يجتمع إلا عليها ؟

لا تعجب إذن أن ترى ألفة الناس بإذن الله على يديه ، وقد بدل ظلامهم نُورًا ، وأنانيتهم إيثارا ، وفرقتهم جمعا ، وعصبيتهم للدم والجنس أخوة للبر والإيمان ، وانطلق بهم في ميدان فسيح من بر العقيدة وصالح العمل وطهر السلوك ، رفع رءوسهم إلى السماء . وطالما نكست أمام حجر أو صنم ، وجرد عزائمهم للحق والعدل وطالما دفعتهم حمية الجاهلية إلى الجور والظلم ، لا تعجب وأنت ترى أتباعه يسامون العذاب ويفتنون لترك دينهم فلا يزيدهم ذلك إلا إيمانا !

« سل النجاشي عمن وفد إليه من أصحاب محمد ﷺ ، سله عما رأى وما سمع ، جاءه رسولا قريش – عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة – لكي يرد المهاجرين ، وهما يحملان الهدايا له ولحاشيته ! قالا : أيها الملك . إنه قد ضوى « أي أتى » إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ولا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قوم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

وبرغم أن عمرو وصاحبه قد اتفقا مع بطارقة النجاشي أن يعاونوهما على رد المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشي كلامهم فإن الرجل الحكيم أبى إلا أن يطلب الوفد المهاجر الصبور ليستمع منهم ثم يحكم لهم أو عليهم .

يقول أبو موسى : وقد كان ممن هاجر إلى الحبشة عن طريق اليمن لما سمع بأمر إخوانه التحق بهم ، ثم قدم معهم إلى رسول الله ﷺ بخيبر »[1] يقول :

« انتهينا إلى النجاشي ، وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه ،

---

(١) زاد المعاد جـ ٢/٤٥ .

وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان . اسجدوا للملك ، فقال جعفر : لا نسجد إلا لله »[1] .

أرأيت كيف حرر محمد هذه النفوس فجعلها لا تحني الرأس إلا لرب الخلق ؟ إنها العقيدة التي حملتهم على الهجرة فرارا بدينهم ، هي نفسها التي تأبى عليهم أن يخضعوا الجبهات إلا لخالقها . أو يذلوا النفوس إلا لباريها ، فهم لا يقبلون في عقيدتهم مساومة ، أو يطلبون بها منفعة حسبهم أن الله يرضى وهم ما خرجوا إلا لوجه الله وابتغاء مرضاته : « لا نسجد إلّا لله » .

ها هم أولاء أصحاب محمد بين يدي ملك يطلبون جواره ، وقريش تساومه على ردهم ، لا يرضون في هذه اللحظة التي يقع فيها التودد وتستباح الحيلة وهم أحوج ما يكونون إلى البقاء عنده أن يداهنوا أو يجاملوا على حساب عقيدتهم ، نِعْم الإيمان ونعمت الثقة في الله ! وحين دخلوا على النجاشي سألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من الناس ؟

فأجاب جعفر بن أبي طالب قال : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفاحشة ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفاحشة وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – وذكر له أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا

---

(١) البداية جـ ٣ .

الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك . فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرؤه عليّ ؟

فقال جعفر : نعم ، ثم تلا من أول سورة مريم إلى قوله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [٢٩ - ٣٣] .

فبكى النجاشي وأساقفته وقال : إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبدا – يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه – فلما كان الغد عاد عمرو بن العاص إلى النجاشي فقال له : إن المسلمين يقولون في عيسى ابن مريم : قولا عظيما ، فأرسل إليهم . فسلهم عما يقولون فيه ، فلما دخلوا عليه ، قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عودا وخط به على الأرض ، وقال : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط .

أرأيت إلى الصحب من أتباع محمد كيف يجري الصدق على ألسنتهم ؟ بل كيف تصدع بالحق قلوبهم ؟ أرأيت إلى العزل المهاجرين كيف يحرصون على دعوتهم ؟ بل كيف يتمسكون بدينهم .

لا تعجب إذن حين ترى الواحد منهم يعرض على الموت ، وأبو سفيان يقول

له : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟

فقال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي .

فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب كحب أصحاب محمد محمدًا .

ثم قتل زيد ، وهو أحد ثلاثة من أصحاب الرجيع [1] الذين غدرت بهم هزيل ، وهم زيد بن الدثنة هذا ، وخبيب ، وعبد الله بن طارق .

أما عبد الله فحاول الإفلات من الأسر فقتل ، وأما زيد فقد عرفت أمره . وأما خبيب فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه ، فلما خرجوا « بخبيب » من الحرم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، واستقبل الموت وهو ينشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

---

(١) وقصة أصحاب الرجيع هذه : أن وفدا من قبائل عضل والقارة ، قدم على رسول الله يذكر أن الإسلام وصل إليهم وأنهم يطلبون رجالا يعلمونهم القرآن ، فأرسل النبي معهم رهطا من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت ، فلما كانوا بين « عسفان ومكة » قريبا من مياه هذيل شعر الدعاة بالغدر ، وفزعوا إلى أسلحتهم يردون غدر القوم ، ومن أعانهم من هذيل ، وقتل عاصم ومن معه إلا الثلاثة الذين ذكرنا أمرهم أخذهم الهزليون وباعوهم لقريش ففعلت بهم ما قد علمت .

هل لأحد أن يقول : إن هذا الدين انتشر بالسيف ؟ وهو يرى هذه الصور الكثيرة التي حولتها العقيدة إلى الربانية الصادقة فاستعذبت القتل في سبيل الله وطابت نفسا بلقائه . لا تعجب وقد عرفت من أخلاق الرسول ما عرفت أن ترى أتباعه على هذه الصورة الفريدة من حسن الصدق والتجرد وجميل الإخلاص والصبر ! فلقد قلت : إن محمدا ﷺ بخصائصه النفسية وأخلاقه المحمدية قد هيء لأن يكون أسوة الخلق جميعا حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وما من شك في أن الأسوة لا تتم إلا بمعلوم يقيني كما عرفت عن حياة محمد ﷺ أنها أشهر وأصدق وقائع التاريخ على الإطلاق .

ومع هذا قد تكتمل الصفات الإنسانية التي يتأسى بها وتنتقل بالتواتر على مر الأجيال على يد أتباع غيورين يدور الدهر عليهم بهزيمة أو نصر ، فتشوه في الهزيمة حضارتهم ويبدل تاريخهم وقد ينسى أو يزول .

وكم من أمم سكنت الأرض ثم ذهبت ودرست آثارها وديست مقدساتها !

ولكن الآثار المحمدية وأخلاق خاتم الرسل لا ترتبط في قيامها بأمة تنتصر أو تنهزم وإنما هي محفوظة بحفظ السماء قائمة برعاية الإله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] وكم وقعت الهزيمة على المسلمين ! وكم تعرضوا في حياتهم لنكبات ومحن وعاشوا في تاريخهم بين مد وجزر !

والقرآن هو القرآن ينتصر بنفسه في نفوس الغزاة وقد انهزمت جيوشه ويستولي على الأعداء فيحولهم إلى أتباع يتعصبون له ويقاتلون من أجله .

والقرآن الكريم قد انفرد دون سائر الكتب بهذه الميزة التي تجعل من الإعجاز إعجازًا لقوى البشر جميعًا أمام قوة الحقيقة المجردة ، فكم ديست أرض المسلمين وبقى كتابهم شامخًا لا يهزم مشرقًا لا يغيب ، في حمى الله لا ينتقص ، وفي رعايته لا يبدل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] .

ارتبط حفظ هذا الكتاب برب السماء ، أما بقية الكتب المنزلة فقد توقف بقاؤها بحفظ العباد لها ، وتستطيع أن تفرق بين قول الله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] في شأن القرآن وبين قوله : ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] في شأن غيره من الكتب .

وتتأمل الواقع التاريخي فترى مصداق ذلك فما من كتاب أُنزل على نبي إلّا اعتراه تبديل وتغيير ، ووقع فيه اختلاف كثير لأنه توقف في بقائه على حفظ الحافظين له والمؤتمنين عليه ، أما القرآن الكريم فقد ضمن الله حفظه وبقاءه وتكفل برعايته ليبقى حجة الله بين خلقه ، وهديه بين عباده : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] . وليس بعد القرآن كتاب ، ولا بعد محمد رسول .

لذا فإننا نقول : الأسوة برسول الله قائمة لا يعتريها تبديل ولا تغيير ، هزم المسلمون أو انتصروا ، لأن خلق رسول الله هو القرآن كما قالت عائشة : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » والقرآن كما قد علمت محفوظ بحفظ السماء قائم برعاية الإله باق يصدع بالحق ويأمر بالعدل ويهدي إلى صراط مستقيم .

يقول الشيخ محمد الغزالي [١] : سل نفسك من ألهم الأمي رسالة تفخر العقول الذكية بالفقه منها وتؤلف في شرح دقائقها وبيان وجوه حكمتها وغرائب أسرارها مكتبات فيها ألوف من الرسائل والمجلدات ، مكتبات يعدو على إحداها زمن جاهل يلقى بأسفارها إلى النهر فإذا نطاف الماء الصافي تسود من فرط المداد ، مكتبات لا تزال مدائن العالم الكبرى تقتنيها وتحرص عليها تتضافر كلها على ماذا ؟ على خدمة الرسالة التي بعث بها النبي الأمي الذي لم يُدخل مدرسة ولم يجلس إلى

---

(١) فقه السيرة .

أستاذ في جامعة ، ولكنه هو الذي شاد دور العلم ، ووضع حجر الأساس في الجامعات بما خلف من ثروة عقلية تطلع مع الشمس وتبقى على الآباد : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩] .

ما روافد هذا العلم ؟ وأين يجد الناس منابعه في هذه الأرض ؟ أكانت أفكار التوحيد تنبت بين أوثان الجزيرة وأحجارها ، أم كانت آيات العدل تقتبس من غطرسة الأكاسرة والمجوس ، أم تعلم محمد ﷺ الرحمة التي بعث بها من قلوب اليهود القاسية ، ووضع أصول الوحدة مع اختلاف الكنائس المسيحية وانقساماتها ؟

ثم هب أن محمدًا ﷺ استوحى أصول دينه العظيم من الأرض لا من السماء فماذا يستتبعه هذا الفرض مما يصادم العقل والواقع ؟

النتيجة الغريبة هي أن قرآنا بشريا استطاع أن يقوم بدعوة لتوحيد الله في أسلوب من القول والتوجيه لم تستطعه كتب السماء نفسها .

أفهذا منطق ؟ أفهذا الدين وضع محمد ؟ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٤٤ - ٤٦] .

ويمكننا على ضوء ما تقدم أن نقرر مطمئنين : أن الرسول ﷺ بخلقه العظيم وسيرته الطاهرة وحياته التي انتقل إلينا كل شيء فيها .

الرسول برسالته الخالدة التي ضمنت لها السماء دوام الخلود وتكفلت بالحفظ

والبقاء – والرسول بشخصيته وإعداد السماء له – دليل عالمية هذا الدين .

وقد اجتمعت في شخصه الكريم صفات الأنبياء جميعًا فكان بما أعده الله أسوة للخلق أجمعين للكبير والصغير ، للوالد والمولود ، للحاكم والمحكوم ، للقائد في نصره وهزيمته ، في منهاجه وشريعته ، لكل شخص في الوجود يدين بالله واليوم الآخر .

وأي إنسان في الوجود يصلح أن يكون أسوة للخلق إذا لم يكن محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين ؟

أما كيف التأسي به ؟

ففي كتاب الله تأمل تدرك معنى الأسوة فيه ، ولسنته تجرد لترى روائع السلوك ومكارم الأخلاق ومحامد الشيم ، ترى بشرًا رسولا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق في فطرته السمحة وتواضعه الجم ، يأوى إليه الضعيف والخادم والمسكين ، الكل يدعوه فيستجيب لدعوته وينذبه لقضاء حاجته .

ترى الخلق العالي والعفة المصونة ، ترى الحكمة البالغة والشجاعة النادرة ، ترى الحق يعرف الناس به ، والعدل يأوى العدو والصديق إليه ، ترى نفسًا تعيش في الأرض بخلق السماء وتحيا في السماء بإقامة الحق في الأرض ، وترى الذكر المتصل والقلب الخاشع والنفس المطمئنة واللسان العف ، ترى الصدق والطهر والإحسان والبر ، ترى النور والضياء ، ترى خاتم الأنبياء !

ثم تأمل واقع الحياة ترى أمة تحولت بهديه من فرقة طائشة إلى وحدة آمنة ، ومن ظلام الشرك إلى نور اليقين ، ومن ظلمة الجهالة إلى وضاءة العلم ، ومن نقمة الأثرة إلى نعمة الإيثار ، كل هذا في أخوة بارة وعزيمة راشدة وسعي مشكور ، يتجهون بعزائمهم إلى الله لا يطلبون إلا وجهه ولا يبتغون إلا رضاه !

« ترى من بين صحابته من يجاهد في سبيل الله ثم يعطي حظه من الغنيمة

فيأباه وهو يقول لرسول الله ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمي ها هنا – وأشار إلى حلقه – بسهم فأموت فأدخل الجنة ! فقال ﷺ : إن تصدق الله يصدقك . ولا يلبث الرجل وقد دخل إلى حومة القتال أن يؤتى به إلى رسول الله ﷺ وهو مقتول فيقول الرسول : أهو هو ؟ قالوا : نعم . قال : صدق الله فصدقه » (١) .

ترى الرجل من صحابة رسول الله وقد انطلق من أسر الشرك إلى سعة الإيمان يجاهد في سبيل الله فيقسم في الميدان أني أجد ريح الجنة من دون أحد ، ويقاتل فيقتل !

ترى البطولة النادرة والإقبال على الله وحسن التوجه إليه وجميل الخشية منه : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم . قال : بخ بخ . قال : فقال رسول الله ﷺ ما يحملك على قولك بخ بخ . قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل » (٢) .

« بل إنك لترى الرجل قد رفع الله الحرج عنه يأبى إلا أن يجاهد في سبيل الله : هذا عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، وله أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، يأبى إلا أن يتوجه إلى أحد ، فيقول له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد .

فيذهب عمرو إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه أمر أبنائه ويقول : إن بني

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ .

(٢) رواه مسلم .

هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة . فيقول له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقتل يوم أُحد شهيدًا »[١] .

حب الله ورسوله يجعل الواحد منهم يقدم نفسه وماله وولده فداء للحق الذي ارتضاه وطابت نفسه به : أما سمعت قول الصحابي وقريش تصلبه وتقتله : أتحب أن محمدًا مكانك يفتديك ؟ قال : لا والله ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه !

« واسمع أمر الصحابي سعد بن الربيع يقول زيد بن ثابت رضي الله عنهم جميعًا : بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم . فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام . قل له يا رسول الله : أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته »[٢] .

« ألم تسمع سعد بن معاذ وهو يقول قبل بدر لرسول الله ﷺ عن نفسه وعن الأنصار : صل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك والله لئن

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٦ .

استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك » [١] .

وليس هذا شأن الرجال وحدهم ، بل انظر إلى المرأة في ظل هذا الموكب الظافر بالطهر المشرق باليقين ، المتألف بالإيمان ، الساعي في الأرض بدعوة الحق ومنطق العدل ورعاية الأمانة .

« ألم تسمع عن ابنة أبي سفيان وقد جاء والدها إلى المدينة وهو على الكفر ماذا صنعت ؟ دخل عليها وهي يومئذ زوجة رسول الله ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ! فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس » [٢] .

« ألم تسمع عن المرأة من الأنصار قُتِل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحد ؟

فقالت وهي صابرة راضية : ما فعل رسول الله ﷺ . قالوا : خيرًا هو بحمد الله كما تحبين . فأبت إلا أن تراه وتنظر إليه لتطمئن عليه ، فلما رأته قالت : الحمد لله ، كل مصيبة بعدك جلل » [٣] .

بل ألم تسمع عن الخنساء التي ندبت أخاها صخرًا في الجاهلية وبكته بشعر أذاب القلوب وأثار الحمية ، إذ بها في الإسلام وقد قُتِل أولادها جميعًا في معركة واحدة لا تزيد على أن تقول في صبر ورضى وإيمان : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم جميعًا ! » .

هذا التحول العجيب – في طاقات البشر وتجميع الناس وألفتهم وإيثارهم وتجردهم لله إن هو إلّا شهادة التاريخ لسيد الخلق .

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ .

(٢) سيرة ابن هشام .

(٣) رواه ابن إسحاق .

وقد شهدت السماء : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩] . هذا التجميع بين القوى المختلفة والعناصر المتنافرة والطاقات المتنوعة لا يمكن أن يتم إلا بقوة أعلى أودعت من سر الله ما يجعلها قادرة على التحويل والامتزاج وفيها من الجاذبية ما يجعل النفوس تتعلق بها وتأوى إليها وتدور في فلكها .

وهذا ما تم لمحمد بن عبد الله . الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير .

تأمل حب الناس له وحفاوتهم به .

وقف اليوم وبعد اليوم عند قبره لترى هيام المحبين وهم يقبلون من كل فج عميق ودموع الشوق تحكي عن صدق الحب ولوعة الحنين !

سل المسلم هنا في أفريقية ، وسل عنه في آسيا وأمريكا ، وفي بقاع الأرض كلها ، سل عما يشعر في قلبه ونفسه من حب لمحمد .

إن نداء لإبراهيم ضمنته السماء تردد مع الزمن وامتد مع الأجيال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٢٧] بقي ماضيا مع الزمن مسموعًا لكل جيل . ومن ضمن نداء إبراهيم ضمن دين محمد ، وتكفل بحفظه فلن يبل على الزمن ولن تغيب شمسه .

وبعد مرة أخرى فلست في حاجة أن أبين لك موضع الأسوة الحسنة وقد أدركت أن خلقه القرآن .

ومنه تعرف أنها قدوة عمل وخلق ، قدوة سلوك وطهر ، قدوة عبادة وتجرد ومعرفة وتقوى وصبر ، قدوة إحسان ورحمة وألفة وبر . أساسها إيمانك بربك ويقينك بآخرتك وذكرك لخالقك : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] .

إن الإنسانية الظامئة إلى الطمأنينة والحب ، المتطلعة إلى السلام والأمن التائهة

في بيداء الخصومة والتناكر لن تجد طمأنينتها في صدق ، وحبها في إيثار ، وسلامها في عدل ، وأمنها في حق ، وتعارفها في أخوة وتعاون إلا بين يدي رسولها الصادق محمد بن عبد الله .

وهو يطهر حياتها من دنس الجاهلية وفرقة العصبية ، ويناديها في صدق : « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية .

ويربي أفرادها على الحق والصدق ليكون كل فرد في نفسه ميزانًا للعدل والطهر يتقبل الطيب ويرد الخبيث ، لا ينقاد لباطل ، ولا يستجيب لمعصية ، ولا يبيع آخرته بدنيا غيره : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وإذا كان هذا نداء النبي لكل فرد ، والإنسانية كما نعلم ليست في حقيقتها إلا مجموع أفراد كان ذلك داعيًا لإشاعة البر محققًا لأكرم المثل التي تقوم عليها حراسة ذاتية من ضمير الفرد ومن تقديره للحق .

ولقد رأت الدنيا في صحابة محمد ﷺ هذا النموذج الفذ في استقلال الشخصية وتآزرها مع الجماعة المعتصمة بالحق والمتآخية على الصدق كما شهدت بهم أكرم حضارة إنسانية عرفها التاريخ .

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) : « وليس من دليل في التاريخ على أن هذه الأرض شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيًا كذلك الجيل الأول في صدر الإسلام حين كان القرآن غضًا طريًا ، وكانت الفطرة الدينية

مؤاتية وكانت النفوس مستجيبة على أنه جيل ناقض طباعه ، وخالف عاداته ، وخرج مما ألف ، وخلق على الكبر خلقًا جديدًا » .

ومع ذلك فإن الفلسفة كلها والتجارب جميعًا والعلوم قاطبة لم تنشئ جيلًا من الناس ولا جماعة من الجيل ولا فئة من الجماعة كالذي أخرجته آداب القرآن وأخلاقه من أصحاب رسول الله ﷺ في علو النفس وصفاء الطبع ورقة الجانب وبسط الجناح ورجاحة اليقين وتمكن الإيمان إلى سلامة القلب وانفساح الصدر ونقاء الدخيلة وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق ثم العفة في مذاهب الفضيلة من حسن العصمة وشدة الأمانة وإقامة العدل والذلة للحق وهلم إلى أن تستوفي الباب كله . وهذا على كثرة عديدهم وترادف تلك الآداب فيهم وتظاهرها عن جميعهم واستقامتهم لها بأنفسهم .

وإنما يكون مثل الرجل الواحد منهم في الدهر الطويل ، وفي الجيل بعد الجيل ، وإنه على ذلك ليكون في الأرض نادرة الفلك ، بل يجعل هذه الأرض مثال السماء لأنه في نفسه مثال الملك .

﴿ لَّقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] ، ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [سورة النساء : ٨٠] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١ ، ٣٢] ، ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴾ [سورة التحريم : ٨] .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النور : ٥٤] .

صلى الله عليه وسلم

° ° °

obeikandl.com